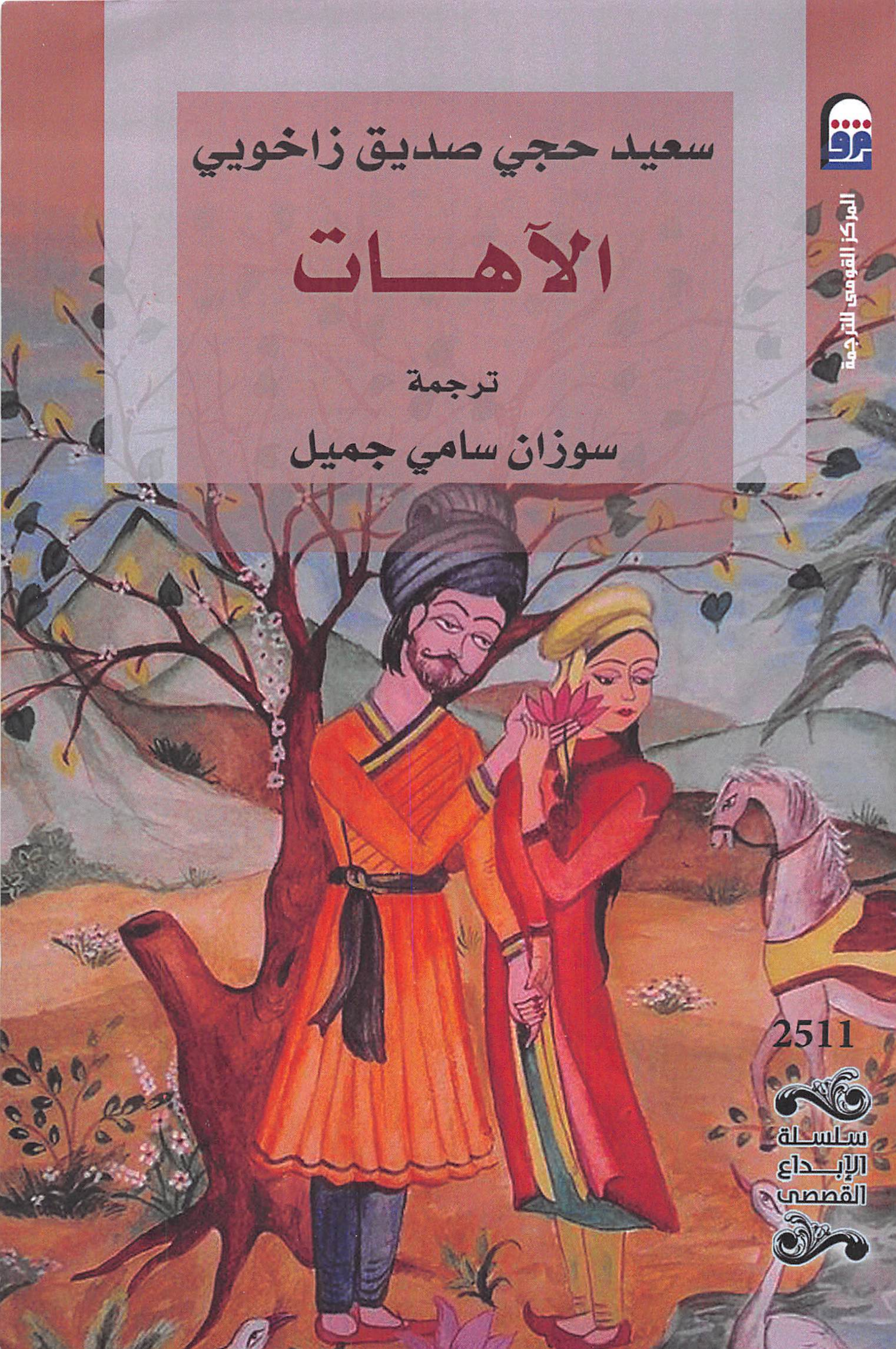


سعيد حجي صديق زاخويي
الآهــات
ترجمة
سوزان سامي جميل
المركز القومي للترجمة
2511
سلسلة الإبداع القصصي

بعد أن أتممتُ كتابة هذه القصص تنهدت ثلاث تنهيدات أنا أيضاً: فالتنهيدة الأولى من أجل كردستان التي لم نحمها بين البلاد، فقسموها إلى أربعة أقسام، والآه الثانية من أجل هزار وخناف وكل النساء اللاتي وقع عليهن الظلم، فقُتلن وسُجِّل الحادث ضد مجهول أو انتحرن دون أن يؤنب الجاني ضميره؛ فبأي وجه سيواجه الله يوم الحساب؟! أما الآه الثالثة فستبقى سراً في داخلي لا أريد أن يطّلع عليه أحد.

الآهات

قصص

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2511
- الآهات
- سعيد حجى صديق زاخويى
- سوزان سامى جميل
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
ئاخينك
سعيد حجى صديق زاخويى

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الآهــات

قصص

تأليـف: سعيد حجي صديق زاخويي

ترجمـة: سوزان سامي جميل



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زاخويى، سعيد حجى صديق.

الآهات/تأليف: سعيد حجى صديق؛ ترجمة: سوزان سامى جميل .

ط ١ - القاهرة - المركز القومى للترجمة؛ ٢٠١٥

١٤٠ص؛ ٢٤سم

١ - القصص الكردية

(أ) جميل، سوزان سامى (مترجمة)

(ب) العنوان ٨٩١٫٥٩٣

رقم الإيداع / ٢٠١٤/٢٠١٢٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-718-880-7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الإهداء

إلى كل نفس طاهرة قُتلتْ أو أُحرقتْ أو أُجبرت على الانتحار في كردستان فغادرت الحياة دون أن يُعيرها أحد اهتماما أو تُثير تساؤلا، أهدي هذه القصة، ترافقها آهات !!!

رشكو (١)

- "نزار، نزار."

التفتُ قائلا: "أهذا أنت يابلند؟"

- "نعم يا أخي. أين تم توظيفك؟"

- "في وادي بساغا في قرية اسمها بنخر. ماذا عنك ؟"

- "أنا في قرية طروانش الثلجية. يقال إن التنقل فيها صعب جداً، وأنا في غمٍّ من ذلك."

- "لماذا؟"

- "بسبب الثلج والطرق غير الجيدة."

- "يارجل! إن القرية التي سأسافر إليها ليست بأحسن حالاً من قريتك. ليس مهما ذلك، المهم ألا ننسى أن هذا موطننا، وواجبنا القومي أن نخدمه سواء بتعليم الصغار أو الكبار. لو رفضنا أنا وأنت وغيرنا الذهاب إليهم، أننتظر من عربي أن يقوم بذلك؟ يجب أن نكون بقدر المسؤولية الملقاة على عاتقنا. ثق بأني لا أجد القيام بذلك صعبًا على الإطلاق، بل أنا سعيد للغاية لأني ولأول مرة سأقوم بخدمة بلدي وخاصة في هذا العمر ياصاحبي."

- "أصبت يا أخي نزار. أصدقك القول ياصاحبي، لقد جعلتني أراجع فكرتي تماما".

- "قل لي ماذا عن بقية الأصدقاء؟".

- "لقد تم توظيفهم، كلٌ في قرية. معظمهم في منطقتي السنديين والبرواريين[٢]".

- "جيد. إنها سنتان فقط وستمر بخير بإذن الله".

- "متى ستسافر هناك يا نزار؟".

- "سأجهز حقيبة السفر وأغادر بعد غد في الصباح الباكر رغم أني سمعت بأن الثلج يغمر القرية".

- "لترافقك السلامة يا أخي وأنا سأفعل الشيء ذاته".

بعد وصولي من الموصل[٣] إلى زاخو[٤] ذهبت مباشرة إلى بيت خالي وما إن وقع بصر ابنة خالي شيلان عليَّ حتى بادرتني بالترحيب وقالت - "تفضل يا أستاذ مباركة عليك الوظيفة. إيه! مجبرون على مناداتك أستاذًا".

قلت: "أنا ممتن لك وأتمنى لك المستقبل نفسه".

ضحكت مني وقالت:"لي وحدي؟"

قلت: "لا، بل لك ولصديقتك. ثم أردفتُ: "يجب أن ألتقي بـ(جانيه)[٥] قبيل الالتحاق بالعمل لأمتع عيني برؤيتها".

قالت: "حسنا، تعال لزيارتنا غدا في العاشرة وستراها عندنا".

استودعتُ صديقي وتوجهتُ للبيت لأبشر أمي بخبر تعييني وقد ابتهجت كثيرا لذلك وقالت: "شكرا لله الذي أبقاني حية حتى أراك أفندياً".

- "أمي، جهزي لي حقيبة السفر لأني سأغادر بعد غد صباحاً".

-"لكن يابني، إن زاخو مغطاة بالثلج لغزارة هطوله فكيف بالقرية التي ستسافر إليها وهي في الجبل؟".

- "لا تقلقي يا أمي، سأكون بخير. يجب أن أغادر خلال ثلاثة أيام لألتحق بالعمل".

لم أنم ليلتي لشدة فرحتي فقد حصدت نتيجة مواظبتي على الدراسة وأصبحت معلمًا، وستحلم الكثيرات بالزواج مني. إيه ،لكني سألتقي بحبيبة قلبي غدا. لا أدري كيف سأطيق فراقها. ستصبح الأيام شهوراً بل سنين، لكن لا بأس في ذلك فستغدو معلمة هي أيضا خلال هاتين السنتين ولن يعوق ارتباطنا بعدها أي عائق.

---

(١) رشكو: هو اسم يطلق للتحبب على ذوي البشرة السمراء الداكنة، وهنا يطلق الاسم على بطل القصة نزار.

(٢) (السنديين والبرواريين) من العشائر الكردية الكبيرة التي تسكن منطقة بهدينان.

(٣) الموصل: اسم مدينة في شمال العراق.

(٤) زاخو: اسم مدينة في كردستان العراق في أقصى الشمال.

(٥) جانيه: تعني الجميلة بالكردية وهنا نزار يُطلق هذا الاسم على حبيبته (هزار).

ذكرى

في اليوم التالي زرت بيت خالي وقد تهندمت بأفضل ماعندي. جلست على أريكة في الصالة، فإذا بحبيبتي جانيه تدخل بابتسامة تعلو شفتيها الساحرتين. صافحتني وجلست إلى جانبي. بهرتني بفتنتها الأخاذة. همست لنفسي: لابد أنني أحلم! أخيال أم حقيقة ما أنا فيه؟ حبيبتي جانيه تجلس إلى جانبي؟

قالت بحياء: "مبارك لك تعيينك أستاذ نزار".

أجبتها بحب: "لك امتناني وأمنيتي بحصولك على الوظيفة فور تخرجك".

همستْ: "قل لي ياقلبي أين تم توظيفك؟".

أجبتها وفرحتي بها لا تسعني: "في وادي بساغا وسألتحق بالمدرسة غداً".

التفتت إليّ وقالت بصوت خافت: "أنّى لي أن أنام في فراشي الدافئ وأنت تعاني من لسعات الثلج هناك؟".

أجبتها وقلبي سيطير زهوًا بها: "لا تقلقي ياحبيبتي أنا لا أبالي بالبرد فأنا في عز الشباب،" وأكملتُ مازحًا: "بمقدوري أن أحيل بيضًا

أضعه تحت أبطي إلى فراخ من شدة حرارة جسدي. مابالك ياحبيبتي؟ ألم أخبرك سابقا بأني أعشق الحياة في الريف وأهوى جباله الثلجية؟ ثم أن مدة التوظيف لا تتعدى السنتين، عندها تكونين قد أنهيت دراستك وحصلت على وظيفة في مكان ما فنتزوج ونظل معا إلى الأبد".

شهقتْ ثم زفرتْ بحسرة مرددة: "ليت هذا الحلم يتحقق فنرتاح. ألا يكفي ما أصابنا من قلق وحيرة." ثم التفتت إليّ متمتمة: "لكن أخبرني كيف سأتواصل معك وأنت هناك؟ فكرتُ بهذا الأمر مليًا حتى أصابني الأرق ليلة أمس من قلقي وحزني. أجبني أرجوك".

أجبتها هامسًا: "جانيه هذا الأمر بسيط. بريد المدرسة يصل إلى مكتب هلال هنا، وأنت بإمكانك إرسال الرسائل إليّ على عنوان المدرسة عن طريق هذا المكتب وستصلني بسهولة".

- "فعلاً إنه أمر يسير، جيد جداً، لكن أنت كيف ستراسلني؟".

- "وهذا أمر أيسر من ذاك. هناك رجل يغادر القرية أسبوعيًا على مهرته ليشتري حاجيات للقرية وينقل بريد المدرسة؛ أستطيع أن أرسل لك الرسائل معه؛ حيث سيودعها هو لمكتب البريد نفسه وأنت تستطيعين مراجعة المكتب واستلام رسائلك منه".

- "يااه، أثلجت قلبي وأسعدتني، ومتى ستغادر؟".

- "غدا في الصباح الباكر".

أجابتني بلهفة: "أستحلفك بالله ولأجلي لا ترفض ما سأطلبه منك".

قلت مازحًا: "خيرًا يارب. حبذا ألا يكون طلبًا مستحيلاً".

لكني في داخلي كنت أردد: "والله لو طلبتْ مني أن ألقي بنفسي من الجبل لأجلها فلن أتردد لحظة في ذلك فقط لأرضيها. ياترى هل سيكون طلبها صعبا؟" وأردفتُ قائلاً: "أعاهدكِ عهد كرديٍ ألا أرفض طلبكِ مهما يكن".

تمتمتْ: "اكتبْ كل شيء تفصيليًا لي دقيقة دقيقة، أريدك أن تدون كل ما يحدث معك من الساعة التي تغادر فيها المدينة حتى وصولك هناك وكل ما يجري معك، سعيدًا كنت أم حزينًا، واشتر دفترا لذلك واعتبرهُ مذكراتك اليومية واجلبه في الصيف كي أقرأه لكن (وقالتها بغنج أحبه) لا تخف شيئًا عني".

همهمتُ بداخلي وأنا مزهو بأسلوبها الأنثوي: "أعدك بأن أنفذ لك ما تطلبينه مني".

أكملتْ بعدها بنفس التودد: "لا تتسلق الجبال والمرتفعات الوعرة وحدك أرجوك، ولا أظنك بحاجة إلى أن أُذكرك بألا تذهبْ للصيد؛ ولأني أعلم بمقتكَ لممارسة هذه الهواية فإني أرجوك أن تجمعَ أهالي القرية إذا تشاء وتوضحَ لهم مساوئ هذه الهواية على الطيور وخصوصًا الحمام، فهم مثلنا عشاق لا يحبون أن يفرقهم مخلوق، كما أن جبال كردستان تزداد جمالا ورونقا بهذه الطيور. أليس كذلك ياحبيبي؟".

أجبتها بابتهاج: "صحيح ياحبيبتي، لا عليك، كوني مطمئنة".

دخلتْ ابنة خالي شيلان بالقهوة وجلست إلى جانب جانيه.

منبهراً كنت أنظر إلى حبيبتي وأردد مع نفسي: "إيه ياحبيبتي، كم تجرعنا آلامًا وجروحًا. كم من الليالي الحالكة الظلمة مرت بنا دون أن يغمض لنا جفن. قلبي عليك ياجانيه كم تسببت لك بالأسى والألم. ليتني أستطيع أن أعوضك بالسعادة عن تلك الأيام المرة، لكني قريبا سأحققها لك إن شاء الله".

بينما كنتُ أحدق في عينيها الجميلتين تمتمت مع نفسي: "وربي إنك لرائعة خلقًا وأخلاقًا ياحبيبتي، فأنت في نظري أميرة البنات ولن أملَّ منك أبدا يا جميلتي." مرّتْ في خاطري كشريط سينمائي المصادفة التي جمعتنا وانتهت بالحب، آه، آه، أتذكر أني عدت للبيت في اليوم التاسع من يناير عام ١٩٥٩ ورأيت ابنة خالي شيلان جالسة بالقرب من والدتي تساعدها في إعداد الخبز في إحدى زوايا البيت في الباحة الداخلية من بيتنا الشرقي الطراز. حينما وقعت عيناي عليها توجّستُ شرًا. أدركت سبب وجودها وقدومها لبيتنا.

فور دخولي إلى البيت قلت لأمي: "أمي أنا جائع، والتفتُّ إلى شيلان لأقول لها: مرحبًا بك شيلو وغمزت بعيني واضعًا أصبعي على فمي، كإشارة لتلتزم الصمت وألا تشي بي".

نظرت شيلان نحوي وقالت: "اجلس وتناول طعام الغداء الآن ولكل حادث حديث أيها العبثي المشاكس".

التفتت أمي إليَّ هذه المرة لتقول بنبرة تعجب: "رشكو ماذا فعلت ثانية؟".

أجبتها: "لا شيء يا أمي، كل ما هنالك أن هذه الفتاة تعاديني وقد صارت لي كظلّي تطاردني أينما ذهبت، إنها تزعجني".

أجابتني مبتسمة: "تناول طعامك أولاً".

هممتُ مع نفسي: "أنّى لي أن آكل؟".

: "رشكو ياولدي لقد طبخت لك الصنف الذي تحبه، كنت لا أزال أحتفظ بوجبة أخيرة من نبات الكار المجفف فطبختها مع الكبّة[1] التي تحبها، وسأخبز لك رغيفًا على الصاج[2] لتتناوله وهو حار مع الطعام. ما رأيك؟ اجلب ذلك الصحن والملعقة من هناك، مشيرة إلى إحدى زوايا الباحة الداخلية التي كنا جالسين فيها، لقد سبقتك ابنة خالك شيلان وأكلت فيه".

قلت بتذمر: "والله ياأمي لا أشتهي تناول الطعام من الصحن الذي تناولت منه شيلان".

: "لمَ تقول هذا يا بني؟ لقد أرضعت شيلان من حليبي لأربع سنوات، كنتما في الطفولة تنامان في فراش واحد، لطالما رأيت إخوة في الرضاعة يحب أحدهما الآخر جداً، لا أدري لماذا أنتما كالسكينة والجبن؟".

: "هي السبب يا أمي فهي تطاردني في كل مكان وتضايقني فكيف لي أن أحبها؟".

الآن فقط تكلمت شيلان لتقول بنبرة جادّة: "أنا أفعل هذا من أجلك، ألا تعرف أني أتضايق حينما يتكلم عنك الآخرون بسوء؟".

قالت أمي وهي تحاول النهوض من جلستها أمام الطاولة الخشبية التي تفتح عليها أقراص العجين وقالت: "دعني أجلب إليك صحنًا وملعقة نظيفة لتأكل".

سارعت شيلان بالقول: "لا ياعمتي، أنا سأجلبهما له".

تقدمت نحوي شيلان برشاقة وهمست في أذني في حين أن أمي منهمكة برص رقائق الخبز: "أعدك بأني لن أنسى هذا لك، وسأردّهُ إليك، صبرًا".

بعد أن انتهيت من تناول طعامي المفضل بشهية بالغة وأنا جالس بالقرب منهما، فاجأتني شيلان بقولها: "ليكن في معلومك ياعزيزي أنني قد لعقت هذه الملعقة قبل أن آتيك بها وشربت الماء من القدح الذي أتيتك به!".

لم أستطع إخفاء ما أصابني من تقزز وكدت أتقيأ، لكن أمي نهرتني وقالت: "ما تفعله عيب يابني، ماهذا؟ وماذا تسمي تصرفًا كهذا؟".

أجبتها وعلامات القرف على وجهي: "لكنها تعرف يا أمي وقد أخبرها معلمها في المدرسة أنه لا يجوز تناول الطعام بين الناس في نفس الملاعق أو نفس الأكواب، وبالنسبة لي فأنا لا أحبذ ذلك معها بشكل خاص".

أجابت أمي بامتعاض: "لا تبالِ بكل ما يقوله المعلم، فنحن نتناول الطعام والشراب مع ضيوفنا دومًا ولم يسبق أن أصيب أحدنا بشيء!".

أجبتها: "يا أمي بماذا تفسرين إصابتنا الدائمة بالأمراض والعلل التي لا نعرف سببها؟".

نظرت إلى شيلو محذّرًا إياها مرة ثانية من الوشاية بي، وإذا بها تقول بصوت جهوري: "أتدرين ياعمتي ماذا فعل رشكو؟" وما إن سمعتها تناديني رشكو حتى فقدت أعصابي، لم أتمالك نفسي وسارعت بالتقاط خشبة طويلة بدايتها في نار المخبز (الصاج) ونهايتها قريبة مني وبدأت أهددها بها وكانت حجة جيدة كي أثير خوفها وأرغمها على السكوت، فبدأتْ بالصراخ: "النجدة! عمتي انقذيني، إنه يريد أن يحرق وجهي!".

قالت أمي بغضب ونفاذ صبر: "رشكو ماذا دهاك ياولدي؟ هل جننت؟ ما خطبك؟".

أجبتها وقد استشطت غضبًا: "لا يحق لها أن تدعوني رشكو، إن فعلتها ثانية سأصيبها إصابة بالغة."

أوقفت أمي رصها للعجين وسألت شيلان بحزم: "أخبريني يا ابنتي بما فعله رشكو".

أجابتها شيلان وهي تنقل ببصرها بيني وبين أمي: "لا أجرؤ أن أدعوه رشكو، سأدعوه باسمه نزار، لقد كان نزار على سطح الدار يجمع الثلج حتى شكّل كرة كبيرة، وكانت نارين وهليز وهزار[٢] قادمات من المدرسة، أخبرتني نارين بأنها رأت نزاراً (وهنا أشارت إلي بإصبعها) وهو يجمع الثلج في كرة كبيرة لكنها لم تتوقع أنه سيدفع بالكرة لتسقط

عليهن، لحسن الحظ هليز لم يصبها الثلج لأنها كانت تسير تحت حافة السقف التي تظلل الممر تحتها وقد سحبت هليز هزار بقوة لكن كرة الثلج التي دفعها نزار أصابت جهة منها وسببت لها ألمًا كبيرًا، وذهبت إلى البيت باكيةً وحينما سألوها في البيت عن سبب سقوط الثلج، أجابتهم بأن الثلج سقط وحده من سطح إحدى الدور".

في سرّي تمتمتُ: "وربي إنها صادقة، فعلاً لقد التفتت هزار نحوي بعينين دامعتين وبعتب وشكوى نظرت إليَّ لكن هذا الموقف كان سببًا في بداية قصة حبنا. يالخيبتي ياحبيبتي هزار الرائعة، ليت يدي انكسرت قبل أن أرتكب هذه الحماقة".

قالت أمي غاضبة: "يالفضيحتنا! كيف فعلت هذا؟ أيها الشقي رشكو إنك تستحق الضرب بهذه العصا (وأشارت إلى العصا التي ترص بها العجين)، يابني إنك ستصبح معلمًا بعد عامين، قل لي أبهذا الأسلوب ستعلم الطلاب".

التفتُّ إلى شيلو وأنا أصرُّ على أسناني: "هل ارتحتِ الآن أيتها النمامة، لقد انزعجتْ عمتك جدًا!".

في الحقيقة لقد انزعجت أمي كثيرًا وقد آلمني ذلك وندمتُ لما قمتُ به لكن وبسبب شيلو أخفيت ندمي.

سألتنا أمي: "أليست هزار هي ابنة جارنا صوفي صالح".

أجابتها شيلان: "نعم عمتي، كما أنها من أقربائنا أيضًا".

أجابت أمي: "صدقت يا ابنتي،" والتفتتْ لتقول لي: "ياحليق الرأس، لقد كانت هزار تهتم بسرير جنابك في الصيف وترتبه لك بعد نهوضك كل يوم وأنت تكافئها بهذه الضربة المميتة؟ لماذا فعلت ذلك؟ ها؟ لماذا؟".

أجبتها وأنا أدافع عن تصرفي: "لكني لم أقصدهن كلهن بل قصدتُ هليز فقط".

قالت أمي بنفاذ صبر: "وبماذا أذنبت هليز معك يابني؟ ألا تعلم أن أمها هي ابنة عم والدك؟".

أجبتها بعصبية: "هي لا تمتُ لنا بصلة".

فردت بنفس أسلوبي: "هل تستطيع أن تخبرني ما الذي اقترفته هليز بحقك؟".

: "لماذا تغتابني في المدرسة أمام الطلاب؟".

: "ماذا قالت عنك؟ أخبرني".

: "لقد قالت إن نزاراً لونه أسود".

فضحكت أمي رغم غضبها وقالت: "بربك قل لي هل هذا الكلام يستدعي ما فعلته؟".

أسرعت شيلان لتقول: "أقسم ياعمتي بأنها لم تقل ذلك، لقد كنت هناك".

-: "وماذا قالت إذن؟ فدتك عمتك".

-: "قالت عمتك من أطلق لقب أسود على نزار مع أنه أسمر، وقد أكملت هزار لتقول وربي إن دمه كالعسل".

:- "رشكو، أنا أدعوك بهذا الاسم تحبباً يابني، أنت أسمر ودمك حلو (إشارة لخفة الدم)، كل عائلة والدك يمتازون بالسمرة لكنكم خفيفو الدم ومحظوظون في زيجاتكم. كيف تفعل هذا بهزار وقد أبدت إعجابها بك بهذا الشكل؟ لقد آلمتني حقًا. ثم نظرت لشيلان وقالت: ابنتي شيلان أريدك أن تنوبي عني بتقبيل جباه أولئك الفتيات وتقدمي اعتذاري لهن وخاصة هزار فهي فعلاً خاتون(٤)".

:- "أقسم ياعمتي مهما امتدحت هذه الفتاة فهو قليل بحقها، تخيلي أنها تعيش بجانبنا ولم نسمع لها صوتًا بعد".

:- "ألا تتذكرين حينما سألتك في عرس عائلة (سفر) من هي تلك الفتاة التي ترتدي الزي الكردي، كم يبدو جميلاً عليها".

:- "نعم كانت هي".

:- "هل تتذكرين حين قلت لك ليتها تصبح كَنَّةً لي، لقد دخلت قلبي. لم أعرفها للوهلة الأولى، لقد تغيرت كثيراً وأصبحت فاتنة".

:- "عمتي فعلاً، فنحن جميعنا نحبها. عمتي: من هذه التي ستتزوج رشكو؟ قولي لي".

مرة أخرى هرعتُ إلى الجمر المتقد والتقطت جمرة لاتزال النار فيها ووجهتها لوجه شيلو لكن أمي صرخت بي فأعدتها لمكانها، وقلت: "شيلو لا يهمني إن لم تتزوجني أي فتاة من هنا، فأنا أصلاً لن أتزوج من زاخو".

ردت شيلو بسخرية: "أتظن أن فتيات زاخو قد وقفن في صف واحد بانتظار إشارة منك؟ قل لي من سترضى بك يامسكين وأنت بهذا الغرور والعناد والمقالب؟".

قالت أمي: "لماذا يا ولدي تقول هذا؟ هذا كلام جديد أسمعه، من أيّ ستتزوج إذن؟".

أجبتها بثقة: "من عمادية[٥] أو من جزيرة بوتان[٦]".

قالت شيلان: "فعلاً فتيات عمادية ينتظرن رشك... ولم تجرؤ على تكملة الاسم واستبدلت به اسمي نزاراً".

قلت لها بغضب: "احترمي نفسك شيلو وإلاّ فسأكويك بهذه الجمرة".

نظرت إليّ وقالت: "لا أستبعد ذلك عنك فأنت تفعلها".

قلت لها: "اشكري عمتك فلولاها لكنت الليلة نزيلة في المستشفى".

بعد شرود قليل قالت أمي: "شيء جديد ما أسمعه اليوم منك، لكن لماذا تفكر باختيار عروسك من هاتين المنطقتين؟".

-: "أمي إنها أماكن الأمراء ويقال إن فتيات المنطقتين جميلات جداً".

قالت شيلو: "باعتقادك أن ابنة أمير عمادية تنتظرك، يامسكين يانزار!".

-: "توقفي عن الكلام يابنت، لا تضطريني لإيذائك".

قالت أمي وهي تنظر إلينا: "صدقتَ، إنهن جميلات، وأصدقك القول أن العماديين أناس طيبون ويهم أنساب مع الزاخويين، وهم يتشابهون في أشياء كثيرة".

:- "كيف ياعمتي؟".

:- "كلتاهما مدينتان قديمتان وقد سكنتهما عوائل عريقة، كما أن المدينتين مشهورتان بأصناف الطعام اللذيذ".

:- "وماذا بعد ياعمتي؟".

ضحكت أمي وقالت: "فتيات المدينتين ونساؤهما خاتونات فهن يهتممن ببعولتهن كثيراً لذا تجد الأزواج يحبون زوجاتهم ولا يغضبونهن فترى البعض يصفهم بالخوف من زوجاتهم! لكن، وهنا ضحكت، الحقيقة ليست كذلك. أتصدقان أننا زرنا عمادية العام الماضي، كان السكان في بساتينهم ومزارعهم وما إن عرفوا أننا زوّار حتى قدموا إلينا ليستضيفونا، ولم تر، فدتك عمتك، كم كانت النساء جميلات بالزي الكردي الزاهي الألوان وهن ذاهبات لوسط المدينة. أنا لم أر أجمل من هذا المنظر في أي مكان آخر من كردستان، لكن يابني لقد كُتِبَت أغانٍ كثيرة عن لباقة وجمال فتيات زاخو وأدبهن." ثم أردفت أمي: "لندع ذاك الهمَّ لحينه. غداً سأذهب لبيوتهن وأقدم الاعتذار لهن. وأنت يابني اعتذر لهن حال رؤيتك لهن".

:- "أمي لا تذهبي لبيت هليز".

:- "وربي سأبدأ ببيتها أولاً".

:- "عمتي لقد قررنا أنا وهليز ألا نسير في هذا الزقاق بعد الآن".

اقتربت من شيلان وهمست: "أعدك بأن أهيئ الحادلة اليدوية(*) لك ولهليز، صبراً أيتها النمامة".

:- "عمتي، هل سمعت ماقاله لي؟".

:- "فعلاً يابني" قالتها أمي بنفاد صبر، "هذا ماينقصنا، حالما يصل أبوك إلى البيت فسأخبره بأن يرفع السلم من هناك كي لا تتمكن من الذهاب للسطح وإلاّ فسأموت من الغضب".

نهضت فوراً من مكاني وقبلت يدها وقلت: "فدتك هاتان البنتان فلأجلك فقط لن أتعرض لهما." والتفتُ لشيلو لأقول لها: "ليتني أراك قد تزوجت، وأتمنى أن يخطبك أحد المجانين في زاخو مثل حمدي أو جانكو أو ميسو المجنون فأزوجك له وأرقص أمام الزفة".

قالت أمي مندهشة: "رشكو، أنت تتكلم اليوم كالمجانين، ماخطبك؟ هل أنت عاشق؟ ألا تخبرني ما بك؟".

قلت لها: "أتمنى أن أرتاح من هذه الفتاة، ليتها، ليتها تتزوج لعربي من الأهوار ليأخذها هناك ولا يأتي بها إلينا أبداً".

:- "رشكو أنا لا أرضى أن تتكلم هكذا ولتعلم أنك تؤلمني".

أخفضتُ رأسي خجلاً والتزمت الصمت لكني لاحظت ابتسامة شيلو على وجهها، فقلت لها موبخاً: "بوركتِ يانمامة، تعالي كل يوم لتؤلمي عمتك ثم اذهبي أنت وهليز لتضعا الحنّاء على كفيكما".

بعدها تذكرت كيف وقفت في طريق هزار عندما كانت عائدة من المدرسة وما إن رأتني حتى ابتسمت، فاقتربت منها وقلت لها: "أستحلفك بالله أن تسامحيني، لم تكوني أنتِ المقصودة".

قالت بدلال: "أعرف ذلك".

بقيت متسمراً أنظر إليها وقد بادلتني النظرات وضحكت ضحكة خفيفة ثم أكملت مشيتها، بعدها التفتت إليَّ وضحكت ثانية، وقد كانت ضحكتها هذه ودموعها تلك هي سبب قصة حب جميلة عشناها معًا بعد ذلك، وقد تعاهدنا على ألايفرقنا إلاّ الموت وبدأت قصة حبنا الجميلة لكن بألم كبير وحزن أكبر حتى صارت الأيام شهوراً وسنين وهجرنا النوم لليالٍ طويلة. آه! لقد ذاق كلانا الكثير من الألم.

شعرت ببضع قطرات من الماء بللت وجهي وكأنني صحوت من حلم فجأة فرأيتهما تضحكان مني. فقالت هزار: "ما بالك يارشكي؟ إلى أين أخذك الشرود منّا؟".

أجبتها: "لقد مرت ذكريات حبنا أمام ناظري كشريط سينمائي".

قالت شيلان: "وهل تذكرت كيف رميتنا بالثلج؟" ثم أكملتْ: "كنتَ على وشك أن تسبب لي عاهة مستديمة حينما ناديتك رشكو فقد التقطت جمرة لتكويني بها، فلم لا تكوي هزار الآن ها؟ إنها تناديك رشكو".

:- "بلى، بلى يا ابنة خالي شيلان ليت يديَّ قد انكسرتا كلتاهما قبل أن أقدم على عمل كهذا".

قالت هزار: "هذا رشكوي أنا فقط ولا يحق لغيرنا أنا وأمه أن يناديه رشكو،" ثم ضحكت وقالت: "لا تنس أن هذا العمل كان سبب حبنا، أليس كذلك ياقلبي؟".

:- "بلى، لقد نظرتِ إليَّ وعيناك مليئة بالدموع والعتاب، فديت هاتين العينين وتلك الدموع التي جذبتني إليك بشدة كالمغناطيس، حسرتي عليك ياجميلتي كم تحملت من الحزن والألم،" بعدها سألتها: "هل تتذكرين عندما زارتكم خالتكم وعائلتها قبل ستة أشهر؟".

هزّت رأسها موافقة على ما قلت وهمهمت: "بلى، بلى،" فقلت لها: "وقتها ذهبت إلى جارتكم وسألتها من هم؟ وماهو سبب زيارتهم لكم؟ فأجابتني ببيت شعري: "لقد بانت علامات المطر، جلبت معها الموت مع خطاب ابنة الخالة،" واستطردت: "لا أدري قد يكونون قادمين لخطبة هزار. كأنَّ برقًا ضربني ولم تهدأ نفسي طوال تلك الليالي التي قضاها الضيوف عندكم، ثقي لم يغمض لي جفن وكنت كالمجانين هل تتذكرين؟".

:- "نعم ياقلبي، كيف أنسى ذلك؟ لقد كانوا فعلا قادمين لغرض الخطبة".

:- "لخطبة من؟".

:- "خطبتي أنا؟".

: "هل تمزحين؟ بالله عليك".

:- "أقسم إنها الحقيقة".

:- "يخطبونك لمن؟".

:- "لابن خالتي وهو أستاذ وقد أنهى تعليمه الجامعي، وكم حاولوا جاهدين إقناعي بالزواج منه حتى إنهم غادروا غاضبين مني، إخوتي وكل من في البيت ألحوا عليّ ماعدا أختي نارين فهي الوحيدة التي تعرف حبي".

:- "وماذا قلت لهم؟".

:- "بعد أن أحرجوني كثيراً، قلت لهم هل أن اللقمة التي أتناولها في البيت تثير غضبكم؟ أم أنكم متضايقون مني؟ يبدو أنني لست ابنتكم! أقسم لو حاولتم أن تنفذوا قراركم فسأذهب الآن لأسكب نفطًا على جسمي وأحرق نفسي وسيظل ذنبي في رقبتكم للأبد ثم بكيت وأتيت بعلبة النفط".

:- "إيه، إيه لكنك لم تذكري لي هذا من قبل؟ فأنا لا أعرف شيئًا عن هذه الحادثة".

:"لم أرغب في أن أسبب لك حزنًا، فلا شيء في الحياة يستطيع أن يبعدني عنك أو يأخذني منك إلاّ الموت".

:- "وماذا حدث بعد ذلك؟".

:- هرعت أمي إليّ وهي تصرخ وكذلك فعلت أختي نارين وبكينا ثلاثتنا، فقالت أمي لإخوتي: "هذه الزيجة غير مقسومة لهما بأي حال من الأحوال." ثم أمسكت بيدي وأخذتني لبيت عمي الذي يسكن قريبًا منا، وسردت على عمي كل القصة.

:- "لقد رحلت بي إلى عالم آخر".

:- عمي قال: "أقسم لو تقدم لها ابن أمير فلن أجبر هزار على الزواج منه" وأردف قائلاً: "قولي لهم إن عمها يقول: هذا الزواج غير مقسوم فليغلقوا هذا الموضوع".

سألتها بجدية: "هل كنت حقًا تنوين إضرام النار في جسدك؟".

ضحكت وقالت: "يا لي من فتاة! كيف سأضرم النار في بدني؟ هل جننتُ أنا؟".

بعد أن أنهت حديثها شعرت بأن الأرض تتمادى حولي وتغضنت عروق جبهتي، لكن كلماتها أسعدتني وهي تقول: "لاتحزن ياجميل الطلّة لقد مضى ذلك الحادث كالحلم".

: "لكن لماذا لم تخبريني؟".

:- "كنت أخشى أن تتهور!".

:- "أقسم بأنه لم يكن سيبرح زاخو حيًا! فديتك جانيه كم تجرعت من الحزن والألم لكني قريبًا سأعوض صبرك بإذن الله".

طلبت من شيلان أن تأتيني بورقة فكتبت عليها قصيدة ثم طويت الورقة وأعطيتها لها.

قالت شيلان متلهفة: "لن أسمح لكما أبداً أن تغادرا البيت دون أن أقرأ ما في الرسالة، قرأت الرسالة لتضحك بمودة ثم تضرعت لله بأن يحقق حلمنا، صافحتني جانيه وقالت: "ليكن في علمك أني في انتظار رسائلك على أحر من الجمر ثم غادرت البيت بعينين مليئتين بالدموع. وبدأت تقرأ قصيدتي وهي تتجه لبيتها:

ما أجملها حبيبتي هلموا إليَّ	إنه الشهر الرابع عشر ظهر لي
بدّلت الخريف للربيع	هي أحلى من ورد الرمان
قامتها كعود الريحان	وعطرها أطيب من الزعفران
أما العيون فحدث ولا حرج	قتلتني وتركتني تائهاً حائراً
بهرتني بضيائها حين تصحو	تغرب الشمس، فليبق بيتها عامراً

---

(١) كاري: نبات ينمو عادة في المناطق الباردة ويستعمل مادة إضافية في عمل الحساء الذي تُطبخ به كرات من البرغل الناعم المحشو باللحم والتوابل ويطلق عليه اسم الكبّة بتشديد الباء.

(٢) الصاج: يصنع عادة من مادة حديدية ثقيلة بشكل ربع كرة، توضع على مساند حجرية ثلاثة (يُضرم تحتها النار بالخشب) بحيث يكون الجزء الأحدب ظاهراً وتُرص العجينة عليه وتقلّب حتى تنضج وتصبح صلبة، لكن رقيقة وسريعة الكسر وعند تناولها تُرش بقطرات من الماء حتى تلين وتصبح جاهزة للأكل.

(٣) نارين وهليز وهزار: هي أسماء كردية تُطلق على الإناث.

(٤) خاتون: لقب أو تسمية يطلقها الكرد في وصف امرأة نشيطة ورصينة وعلى خلق كبير.

(٥) عمادية: اسم مدينة في كردستان العراق.

(٦) بوتان: اسم مدينة في كردستان- تركيا.

مشقّة الغراب في اجتياز المفازة

غادرت بيت خالي واتجهت فوراً لبيت إسماعيل بن سوسيه(*) وقلت له: "ستقلني غداً لشرانش[1] بسيارتك اللاندروفر." فقال: "من عيني لكن الطريق مغطى بالثلوج والقيادة فيه صعبة وعليَّ أن أربط السلسلة في عجلات المركبة تجنباً لانزلاقها".

-: "أنت أعلم بما يجب أن تفعله، سأنتظرك غداً".

هيأت حاجياتي للسفر في تلك الليلة وصورة هزار تأبى أن تفارق مخيلتي. كيف سأحتمل البعد عنها؟ الله أعلم كيف ستكون الطريق للقرية؟ لم يسبق لي أن ذهبت للجبال، إنها المرة الأولى، بدأت الأفكار تتخبط في رأسي وأنا أندس في فراشي وغططت في نوم عميق. نهضت باكراً لأرى اللاندروفر واقفة عند باب بيتنا. نقلنا أنا وإخوتي ما هيَّأته لي أمي من مستلزمات السفر والإقامة. قال لي إسماعيل سائق اللاندروفر: "إذا كان الثلج قد سقط بهذه الكثافة هنا فكيف به في المنطقة التي سنسافر إليها؟".

أجبته بثقة: "صدقني أنا أعرف جيداً كم هو صعب عليَّ ما أنا مُقدم عليه لكن لا خيار لي، سأتوكل على الله." ودّعتُ أبي الذي أعطاني

أقراصاً من الخبز الكردي لآخذها معي، فقلت له: "لكنني صائم يا أبي،" فقال: "مادمت على سفر فلا بأس من عدم الصيام فكل الخبز في الطريق إذا شعرت بالجوع أما إذا تمكنت من الاستمرار صائماً فكل الخبز في الإفطار." أخذت الخبز منه، قبّلت ظاهر كفّه وركبت اللاندروفر.

تحركت السيارة باتجاه الطريق المؤدية للقرية التي سأعمل معلماً في مدرستها، وكلما توغلنا في الطريق ازداد هطول الثلج غزارة حتى وصلنا أسفل مرتفع كبير. قال سمو (وهو تصغير لاسمه إسماعيل): "هناك مثل شعبي عندنا يقول: (مشكلة الغراب في اجتياز المفازة) ونحن أيضا ستنتهي صعوبة المكان بالنسبة لنا باجتيازنا هذه النقطة." بعد أن صعدنا المرتفع ووصلنا منطقة شرانش دخلنا إحدى القرى، فتجمع حولنا رجالها ليتأكدوا إذا كان المعلم الجديد قادماً ليعمل في مدرسة قريتهم أم في قرية أخرى! فأخبرتهم بأني سأعمل في وادي بساغا قرية بينخري، فقال لي أحدهم: "لا تتعب نفسك، فلا أنت ولا نحن سنتمكن من الذهاب هناك، فالثلج قد نزل منذ البارحة فقط أي لم تدسه الأقدام أو يتعرض للضغط لذا السير على هذا الثلج خطير جداً.

قال أحدهم واسمه سالو: "أنا سآخذك هناك على فرس لكن سيكلفك الفرس الواحد خمسة دنانير! فكرت قليلاً إن هذا المبلغ يكفي لسفرة للبصرة ذهاباً وإياباً ويزيد لكن لاخيار لي. فقلت له: "حسناً موافق".

قال: "كم فرساً تريد؟".

قلت: "فرساً واحدة".

قال: "وماذا عنك؟".

أجبته: "سأمشي".

فقال مستغربًا: "أستاذ، اعلمْ أن ذلك صعب جداً".

قلت له متسائلاً: "كم تبعد القرية عنكم؟".

أجاب: "إنها بعيدة جداً، تبعد حوالي ثلاث ساعات فى مشي خلف جبل خامتيري".

قلت: "لا يهمني، سأمشي".

أحضر الفرس وشدَّ كل ماجلبته معي من حاجيات على ظهرها.

ودعني السائق وهو يقول: "ماذا تريدني أن أقول لوالدك؟".

قلت: "بلغه تحيتي وقل له إني في طريقي للقرية".

قال: "لترافقك السلامة". عاد السائق إلى زاخو وذهب فوراً لوالدي.

بادره والدي: "تعال يا إسماعيل، مرحبًا بك، قل لي كيف سارت الأمور معكما؟ كيف كان الطريق وماذا حصل للأستاذ؟".

قال السائق: "كان الطريق صعبًا جدا ياحاج، لكني كنت أقود السيارة بحذر ومهارة حتى صعدنا المرتفع ورغم أني ربطت العجلات بسلسلة حديدية فإن اللاندروفر كانت أحيانا تنزلق وتدور لتتوقف كلياً أو لتغير حركتها باتجاه زاخو.

فقال: "وماذا فعلتما؟".

قال السائق: "لم أكن بقادر على السيطرة الكلية على القيادة فقد انتابني الخوف من الموت ولأكثر من مرة. لقد قمت بإحصاء المنعطفات والمنخفضات فكانت ثلاثة وثلاثين كلها ملتوية ومتعرجة. كانت الارتفاعات صعبة جداً وغير صالحة للسيارات. في قرية صخرة كيرَي كان الثلج قد نزل أكثر من المناطق الأخرى لكن النزول أسهل رغم التعرجات في الطريق وخاصة إذا كان خاليًا من الناس. كنت أتصبب عرقًا خوفًا رغم برودة الشتاء وهطول الثلج، وحين وصلنا لأقرب مكان لقريته التي سيعمل فيها معلمًا استشهدت بالله ورسوله وتركته هناك ليوصلوه لقريته مشيًا ولم أغادر حتى تأكدت من ذهابه بعد أن شدوا أمتعته على الفرس." التفت إليه أبي قائلاً: "شكرًا لك يابني وكم هي أجرتك؟".

أجابه السائق: "أتظن أن دينارًا واحدًا كثير لما قمت به؟".

قال: "لا بالعكس، هاك دينارًا ونصف الدينار. ليبق بيتك عامرًا يارب وليصل ابني بسلام لقريته".

---

(١) شرانش: اسم قرية كردية – بهدينية تقع في جبال كردستان.

هموم هزار

الراوى : شيلان

كنت أستعد لزيارة هزار وما إن رأتني والدتي حتى بادرتني بالسؤال: "شيلان ماذا تفعلين يا ابنتي؟".

أجبتها: "أنا ذاهبة لهزار لندرس سويًا يا أمي".

قالت أمي رافعة يديها للدعاء: "اذهبي يا ابنتي وليكافئكما الله على جهودكما في الدراسة".

كان الثلج يهطل بشدة مع وصولي إلى بيت هزار، وحينما سألتُ عن هزار أجابتني أمها: "لا أعرف ماذا تفعل هزار في السطح رغم البرد وهطول الثلج وترفض النزول وكثيراً ما ناديتها لكنها تقول أنا مبتهجة بالثلج يا أمي. اذهبي إليها يا ابنتي فدماؤكما حارة لأنكما شابتان أما نحن فلا نحتمل البرد وإنْ كنا داخل الغرفة وأمام المدفأة".

صعدتُ إلى السطح فاستقبلتني هزار بضحكة ناعمة وشعرها مغطى باللون الأبيض لتراكم الثلج عليه. بادرتني بالكلام: "أهذه أنت ياشيلان؟ مرحبًا بقدومك، ثقي كنت في انتظارك، تعالي، أقسم سينفجر قلبي.

سألتها: "ماذا تفعلين هنا؟ ألا تشعرين بالبرد أيتها المسكينة؟".

أجابتني مندهشة: "وما الذي أفعله ياشيلان؟ ماذا دهاك؟ هل جننتِ؟ كيف لي أن أجلس بالقرب من مدفأة وأشعر بالدفء في حين أن حبيبي رشكو يشعر بالبرد ويعيش في الصقيع؟ كيف، ها؟ أجيبيني! صحيح أن الثلج يهطل عليّ لكن ناراً مستعرة في قلبي تحرقني، وكلما كانت رؤية الجبال غير واضحة من هنا بسبب الضباب ازداد حزني".

قلت مشفقة عليها: "انزلي ياحلوتي، هذا الكلام لا طائل منه، دعينا ننزل للبيت وادعي الله أن يكون سالمًا، ولا تعبئي للجبال فهي دومًا تظهر هكذا".

قالت وهي تتنهد: "ليتني كنت معه، ليتني، كنت سأساعده".

ضحكت منها قائلة: "لو كنت معه لأصبحت عبئًا عليه،" ثم سألتها **وأنا أشير إلى يدها:** "وما هذه الورقة التي في يدك؟".

أجابتني: "كنت أكتب قصيدة عليها".

-: "أصدقيني القول هزار، هل بدأت تكتبين الشعر؟".

-: "بلى، كنت أدردش مع الثلج".

-: "لننزل للغرفة حتى تقرئيها لي ياشاعرة، ليت الله يحقق لكما حلمكما".

-: "ليته يا شيلان ليته، ادعي لنا الله أرجوك".

:- "إني أتجمد من البرد، أسرعي بالنزول." بعد أن دخلنا الغرفة ونالنا قسط كبير من الدفء سألتها أن تقرأ لي ما كتبت، فقالت: "كنت أنادي الثلج، ياثلج!".

:- "هل أنت جادّة فيما تقولين؟"

:- "نعم وربي نعم".

:- "وماذا كنت تقولين للثلج؟".

كتبت له قصيدة قلت فيها:

أيهـــا الثلج، ياثلج الربيع لاتهطل على حــبـيـبي

القلب يستعر ناراً في انتظاره احـمـه من الشـر

أيهـــا الثلج، ثلج الخريف لا تهطل على عـزيز قلبي

ضحكت منها وقلت: "يا سلام، أنتم معشر العشاق مجانين والفراق يزيدكم جنوناً، أخبريني هل أجابك الثلج؟".

:- " نعم، لقد أجابني فوراً".

:- "وماذا قال؟".

قال:

يبـدو أنك عـاشـقـة لاتهـدأ سـريرتك

تلقـمين نفـسك نار الحب التي يذوب لهـا الثلج

أين هو حـبـيـبك لأبلغـه سـلامك؟

ثم أكملت هزار: وقد أجبته أنا:

أنت لا تعـــــرف مـــــا ألـمَّ بي   وأي نار تلك التي تستعر في قلبي
أيهـــا الثلج أنت تهطل هكذا   فـــتـــثـــيـــر دمــوعي للهطول
أنــت لا تدرك هـمــــوم قـلبـي   الذي وقع في أزمــة كــبـيــرة

قلت لها بعطف كبير: "أقسم إن هذا الحب يثير عجبي".

قالت وكأنها لم تسمعني: أجابني الثلج قائلاً:

لـــن أهـــطـــل مـــن أجـــلـــك   لكنـي ســـأحـــقق لك أمنيــتك
اصـــــرخي بأعلى صـــوتك   واللـه ســــيــــتكـفل بـنـا
إنه هو الذي يتكفل بالطيـــور   ويوصـل الطعــــام إليـــهـم

فقلت: "وماذا بعد؟".

: "إضافة لما أنا فيه من هم وحزن، حطَّ بلبل صغير على حافة سطحنا وبدأ بالتغريد الجميل فشعرت بروحي تذوب، أي حال أنا فيها وهو زاد الطين بلّة".

سألتها بمرح: "ألم تشتكي للبلبل أيضًا؟".

أجابتني بجدية: "بلى يارفيقتي، لقد أصبحت كشجرة الأربعين(١) لحنًا، لا أحد يتمكن من إيقاف قريحتي، لقد نظرت للبلبل وقلت له:

أيهـا البلبل، لتـفـقـد البـصـر   ولا تـهـــــــدأ أبـداً

هل أنت عـــاشق مـــثلي؟   إذن حـــقق هذه الأمنيــة لي

وأين هي حـــبيــبتك؟   وهذه الأنات التي تصدر عنك. أهي لها؟

قلت لها وأنا أتأملها: "هزار سأقول لك شيئًا لكن لا تغضبي مني أرجوك".

أجابتني باهتمام: "لا لن أغضب فأنت مثل أخت لي، هات ماعندك".

قلت: "أظن أنك ستسيرين على خُطى المجنون ميسو[٢]، ياحبيبتي ماذا دهاك؟ هل أنت أول العاشقين؟ تتحدثين إلى الثلج والغيم والبلبل، ماذا سيحدث بعد هذا؟".

قالت بيأس: "أنت لا تدركين ضراوة النار في قلبي، لا ألومك".

أجبتها مازحة: "ثقي بأن الشيء الوحيد الذي استفدتهِ أنتِ هو أنك أصبحت شاعرة جيدة".

---

(١) شجرة الأربعين لحنًا: عبارة يطلقها الكرد كناية عن تعدد المواهب عند الشخص.

(٢) ميسو: إحدى الشخصيات في الفولكلور الكردي وكان مجنونًا وطيبًا.

زوبعة الثلج

الراوي: رشكو (نزار)

تقدّمني الدليل سالو بالسير وأنا أتبعه وقد كنت متهيِّئًا في ملبسي للثلج، ففي قدميَّ حذاءٌ مصنوع من البلاستيك وقد أحكمت ربط قدميَّ بأربطة سميكة وكنت مرتديًا معطفًا شتويًا سميكًا وقبعة شتوية على رأسي واتكأت على عكاز يساعدني على السير في الثلج ومَشَينا. نظرت إلى رجال القرية الواقفين هناك فرأيت علامات الحيرة على وجوههم فعلمت أنهم مشفقون عليَّ وأدركت أن صعوبة كبرى في انتظاري. صعدنا ببطء على المرتفع الذي يطلّ على شرانش. كان الغيم يغطي أسفل السماء وكانت ندف الثلج الناعمة تنزل أحيانًا. كلما أمعنا في السير كانت الأرض مغطاة بالثلج أكثر. بعد نصف ساعة شعرت بالتعب والحرارة جراء العطش والسير في الثلج. سألتُ الدليل: أيها الخال سالو، كم بقي لنا من الطريق؟

فردَّ بتعجب: لتغطَّى أعداء خالك بالرماد، نحن لانزال في بداية الطريق، في المناطق المحيطة بشرانش المسيحيين، أقسم إنك ستتعبني، قلت لك لآتيك بفرس أخرى فلماذا رفضت؟.

أجبته بهدوء: لا، لا عليك، لا تقلق. بينما كنت أهمس لنفسي: ليتني طلبت فرسًا أخرى. صرنا على مقربة من جبال خامتير وكانت الجبال مغطاة تمامًا بالثلج وتبدو بيضاء اللون حتى أنني لم أرَ أي بقع سوداء، لكني رأيت نبعًا للماء وسط ذلك الثلج وكان الدخان يتصاعد منه. كنت جائعًا وظمآنَ ومتعبًا فجلست عند النبع آكل الخبز الذي أعطاني إياه أبي وشربت من ذلك الينبوع وأرحت قدميّ قليلاً ثم واصلت السير بسرعة لألحق بالخال سالو. من هناك أصبح الطريق أكثر وعورة وصعوبة وضيقًا وكان عمقه يبلغ تقريبًا مترًا واحداً وبالكاد يكفي لمرور شخص واحد فقط ولم يكن هناك طريق آخر لنختاره. كان السير في هذه الأرض الوعرة صعبًا علي جداً خاصة وهي المرة الأولى التي أصعد فيها الجبال. مرة ثانية شعرت بالجوع والعطش بعد هذا الزمن من السير لكني لم أرَ أي نبع للماء في هذه الأنحاء فكنت آخذ قبضة من الثلج بين الفينة والأخرى وأضعها في فمي كي أسد عطشي وكنت بسبب الإنهاك أتنفس من فمي كلاعب يؤدي تمارين رياضية، لذلك جف بلعومي وأحسست بحرقة كأنها لشفرات حلاقة في تجويف فمي وكان الثلج يزيد من تلك الحرقة، إلاّ أن شيئًا واحداً كان في بالي، رغم كل هذا التعب، وهو أن أدوّن كل هذا بالتفصيل لحبيبتي جانيه، في كثير من الأحيان كنت أتخيل ظلّها يظهر حولي ويحدثني بحب: "انهضْ من أجلي ياحبيبي، أنا في انتظارك فكنت أتشجع وأسرع في السير دون أن أشعر بالتعب".

لا أعرف كيف وصلنا للقرية بسبب الثلج الغزير ويبدو أننا وصلنا أبطأ من المفروض.

قال سالو: الحقني يا ابن أختي سنهلك لا محالة، إن زوبعة ثلج قادمة إلينا، أدعو الله أن يرانا القرويون كي يأتوا لنجدتنا. تقربت منه فقال لي: اخلع معطفك الشتوي ولف رأسك به كي تتمكن من التنفس ولنقترب من الفرس حتى تأتينا نجدة من القرويين، وبعد فترة من الزمن ليست طويلة قدم القرويون مسرعين لنجدتنا. كنت قد فقدت الوعي تقريباً لكني شعرت بأحدهم يلف وجهي بغطاء فتمكنت من التنفس، ورغم هذا الألم والشعور بالغيبوبة كانت حبيبتي في بالي وبجانبي أسمعها وهي تقول: " قاوم من أجلي أرجوك، انهض فأنا بانتظارك. من أجل هذا فقط لم أستسلم للموت وأردت أن أعيش، شعرت برجلين يساعدانني على المشي وكانا أحيانا يحتضنانني حتى أوصلاني أمام أحد البيوت".

قالا: "أستاذ، هذا بيتك. تقدم حارس المدرسة ونقل أمتعتي إلى البيت. حينما دخلت الغرفة كانت دافئة فيها موقد للخشب. حان وقت الإفطار بعد أذان المغرب، لكن لم يذهب أي منهم لتناول طعامه وبقوا مشغولين بقدومي وكانوا فرحين جداً. دخلت الغرفة الثانية المعدّة لنومي واستلقيت على سرير جاهز لي دون أن أغير ملابسي وغططت في نوم عميق ناسياً الجوع والظمأ.

....

الخال حسو

الراوى : الكاتب

الخال حسو هو أحد كبار القرية، كان قد سأل هادي الحارس الليلي عن الأستاذ. فأجاب هادي: "أمس أنا والعم هشيار لسنا وجنة الأستاذ وكانت دافئة قليلاً. كنت خائفًا عليه لأننا نسكن وحدنا في هذا البيت كما أنه يقع في زاوية بعيدة قليلاً عن القرية ولم يكن هناك من يعلم كيف يعالج الحمى فتركنا الأمر لله. استيقظ الأستاذ من نومه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل مندهشًا ينظر حوله وإلى السقف لبرهة ثم سألني: "من أنت؟ وأين أنا؟" فقلت له بهدوء: "أنت الأستاذ الجديد في مدرسة قرية بينخري وأنا هادي الحارس الذي يشرف على خدمة المدرسة وخدمتك".

فرد الأستاذ متذكرًا: "آه، نعم، نعم".

قال هادي متمتمًا: "حمدًا لله لقد تذكر ذلك".

قال الأستاذ مكملاً:- "كم أنا منهك، أشعر وكأن جسدي قد طُحن في جرن! هادي، أنا جائعٌ وظمآن جدًا".

أجاب هادي: "أستاذ، طعامك جاهز".

قـال نزار:- "أعطني قليـلاً من الماء الدافئ لأشـربه. أشـعـر وكـأن شفرات حلاقة تقطِّع حنجرتي؛ يصعب علي ابتلاع أي شيء".

:- "أستاذ، لقد طبخت لك حساءً".

:- "جيد، صب لي طبقًا".

بعد أن أكل الأستاذ طعامه وشبع قال لهادي: "سلمت يداك، لو كنتَ قد طبخت شيئًا آخر ما كنت أتمكن من أكله بسبب حنجرتي، ثم أردف قائلاً: "إليَّ بتلك الحقيبة." وبعد أن أعطيته إياها فتحها ليأخذ منها بعض الأدوية وقال لي: "هل في القرية من يجيد الحقن بالإبر؟" فقلت له: "لا يا أستاذ، لا أحد يعرف ذلك،" فطلب مني أن أناوله قليلاً من الماء فتناول دواءه وحَقَن نفسه بنفسه.

قال هادي: "لقد قدم رجال القرية بعد صلاة العشاء لزيارتك لكني قلت لهم: لقد خلد الأستاذ للنوم حتى دون أن يغير ملابسه وقد كان يئن من التعب،" فقال الخال حسو: "لا توقظه من النوم لكنك إذا كنت تجيد الطبخ فقدّم له طبقًا من الحساء الحار وإلاّ فسأذهب لأحضر له ذلك من البيت،" فقلت له: "نعم أنا أجيد الطبخ، إنه سهل وسأطبخ له الحساء بلحم الحمام،" ثم قال الخال حسو: "لا تدعه يشرب أي شيء بارد، ضع الماء له في الغرفة كي يدفأ ثم يشربه فيبدو أنه قد أكل الثلج في الطريق وتنفس من فمه مما سبب الألم لحنجرته وحاول أن تدلّك جسمه بعد أن يستيقظ من النوم وبلغه تحياتنا".

ردَّ الأستاذ: "امتناني لهم، سألتقيهم قريباً. أتعرف؟ أنا أؤيد ماقاله الخال حسو".

فقال له هادي بحماس: "بالمناسبة يا أستاذ، هل تريدني أن أدلّك لك جسمك قليلاً؟".

فقال الأستاذ: "نعم، جيد جداً، سيريحني ذلك".

بدأ هادي بتدليك جسد الأستاذ بقوة وكأنه يضغط على عجينة. بينما هادي يدلك جسده قال الأستاذ بصوت منخفض: "لا توقظني من النوم غداً حتى أستيقظ وحدي".

أجاب هادي: "على عيني يا أستاذ، أنت تأمرني".

ثم غطَّ نزار في نوم عميق.

....

حيتو (١)

الراوى : هادى

في اليوم التالي قدم الخال حسو وسأل عن الأستاذ مرة ثانية فأخبرته بأن الأستاذ لايزال نائماً. في تمام الواحدة بعد الظهر استيقظ الأستاذ وهو يئن من الألم وقال لي: "هادي، أشعر بالجوع والعطش،" فقدمت له الطعام وبعد أن شبع تناول الدواء ثم قال: "هادي، دلّك لي جسدي قليلاً".

قلت له: "أنت تأمرني يا أستاذ." بعد ذلك خلد للنوم. بعد صلاة العشاء، أقبل رجال القرية ليرحبوا بقدومه، فاستيقظ الأستاذ على أصواتهم ورحب بقدومهم ترحيبًا حارًا لكن بصوت منخفض وقال لهم: "اعذروني فأنا لا أتمكن من التكلم اليوم، أسعدني قدومكم وسنلتقي عن قريب إن شاء الله". أدرك رجال القرية مرض الأستاذ وتعبه فخرجوا ليتركوه يخلد للراحة.

قال الأستاذ لي: "هادي، لن أتمكن من البدء بالتدريس غداً، لكن أريدك أن تنظف المدرسة وتهيئها لليوم الذي يليه وبلّغ الطلبة أن الدوام الرسمي هو بعد غد إن شاء الله".

قلت له: "أنت تأمرني يا أستاذ." وبدأت بتدليك جسده مرة أخرى بعد أن صببت عليه قطرات من الزيت ليسهل التدليك. ثم استطردتُ: "سأُحَمِّمُك غداً يا أستاذ لترتاح وتذهب عنك رائحة الزيت هذه".

أجاب الأستاذ: "إن شاء الله هادي، أشكرك جداً".

في الليلة التي تليها استعاد الأستاذ نشاطه وبعد أن تناولنا العشاء قال لي: "اسقني شاياً لذيذاً ولندردش قليلاً وعندي بعض الأسئلة أريدك أن تجيبني عنها".

قلت له: "تفضل يا أستاذ اسألني ما تشاء،" ثم استطردتُ: "إن القرية بأكملها عبارة عن اثنين وثلاثين بيتًا وهم كباقي سكان الوادي أناس طيبون يُكرمون الضيف ويحترمونه، وهم صادقون وذوو أفكار نقية".

أجاب الأستاذ: "أتعرف أني شعرت بذلك في طريقي إلى هنا، لكن قل لي من هو قائد القرية أو كبيرها؟".

أجبته: "الخال حسو هو الحكيم الذي يحترمه ويستشيره الآخرون في أمورهم وهو جدير بذلك، وقد سأل عنك عدة مرات، وهناك شيخ القرية ويدعى الفقيه عبو لكني لا أظن حسب رأيي أنه كثير العلم رغم أنه يدّعي ذلك إلاّ أنه يعالج المرضى".

سألني الأستاذ مستغرباً: "كيف ذلك؟ هل درس شيئًا عن الطب؟".

أجبته: لا يا أستاذ، هو بارع في عمل التعويذات والقراءة على القادمين إليه مع أنه لايجيد قراءة القرآن كما أنه لا يعمل إلاّ في مقابل

نقود أو هدايا ومن الصعب أن تصادف في القرية من لا يضع على صدره تعويذة له وصدقًا أقول عنه إنه سيئ المعشر كما أنني أعرف عنه حقائق لا أحب أن أذكرها فهو من يتحمل وزرها وحده، ثم أكملت: أما أسوأ رجل في القرية ويكرهه الجميع فيدعى حيتو.

سألني الأستاذ مستغربًا: "لماذا؟".

أجبته بثقة: "لأنه يكذب ويفتري على الآخرين ويسرق وأسلوبه في الكلام رديء، صفاته سيئة إضافة إلى أنه قبيح الوجه".

قال الأستاذ: "صِف شكله لي لأعرفه حينما ألتقيه".

أجبته متحمسًا: "طيب يا أستاذ. رأسه كبير، بدين أسود اللون، أعور العين، أنفه ضخم، شفته السفلى متدلية تُظهر صفًا من الأسنان الذهبية، شاربه طويل، يدخل في فمه وهو يتأتئ عندما يتكلم فيملأ وجه من يتحدث إليه بقطرات ينفثها من بصاقه. لقد افترى عليَّ مرة عند المسؤولين في المدرسة ليطردوني كي يأخذ مكاني و....."

قاطعني الأستاذ فجأة: "كم عمره؟".

أجبته: "لقد جاوز الأربعين".

قال الأستاذ: "أريد أن أعرف بعض المعلومات عن المدرسة".

أجبته: "حسنًا يا أستاذ، لقد افتتحت المدرسة عام ١٩٣٧، وهي تتكون من ثلاث غرف، اثنتان منها للطلاب وواحدة للمعلم، لكن البناء قديم ولا شبابيك فيه".

سأل الأستاذ: "وكيف يتمكنون من الرؤية؟".

قلت له: "أنا أشعل قنديلين في كل غرفة".

قال الأستاذ: "وربي هذا صعب! لكن الإضاءة في هذا البيت جيدة بهذا الشكل".

أجبته فوراً: "يا أستاذ لقد بنت الحكومة هذه الدار للمعلمين بعد أن افتتحت المدرسة وصدقًا إن البناء جيد ومرتب.

سألني مرة أخرى: "طيب كم هو عدد طلاب المدرسة؟".

أجبته: "خمسة وعشرون طالبًا يا أستاذ، ولا توجد صفوف خاصة حيث يجتمع طلاب المرحلة الأولى والثانية والثالثة في الغرفة الأولى، وطلاب المرحلة الرابعة والخامسة في الغرفة الأخرى والجميع كان يعلمهم معلم واحد فقط إلاّ أن جيكر كان يساعد المعلم."

فقال الأستاذ: "ومن هو جيكر؟".

قلت له: "إنه طالب كبير في العمر مقارنة بالطلاب الباقين وهو مجتهد وجيد الخلق ويساعد المعلم في تدريس الطلاب".

تمتم الأستاذ: "طيب، سنذهب غداً باكرين إلى المدرسة فقد مرت أربعة أيام على قدومي هنا، وسيكون الدوام صباحًا ومساءً".

فقلت له: "أستاذي لقد نظفت المدرسة جيدا وكنست الثلج من سطح المدرسة وسأذهب معك في أي وقت تأمرني به".

قال لي: "سلمت يداك".

(١) حيتو: اسم يُطلق عادة على حليق الرأس، وتعني أصلع.

في الجانب الآخر من الجبل

الراوى : شيلان

في الجانب الآخر من الجبل هناك قلب تنام فيه النار، إنه قلب هزار الذي لم يهدأ منذ سفر نزار. هزار لم تقرب الطعام هذه الأيام بصورة طبيعية في بيت الطالبات الذي سكنّاه في مدينة الموصل، وأخذت تشعر بالدوار بسبب غياب نزار الذي مضى عليه أسبوعان دون أن تصلها أية أخبار عنه. دخلتُ الغرفة التي حجزناها معًا للسكن فيها، وجدتها ساهمة وحزينة، قبّلتها قائلة لها: يا أختي إنك تنتحرين هكذا، يجب أن تتمتعي بالصبر قليلاً، لستما أول أو آخر عاشقين، سنسافر إلى زاخو بعد يومين وسنبقى هناك ثلاثة أيام ومن المؤكد أن عمتي لديها معلومات عنه.

قالت هزار: "الأمر ليس بيدي ياشيلان، تعالي انصحي قلبي. لم تكن إجابتي كما أريد في امتحان اليوم ، فقد كنت شاردة معظم الوقت. ماذا أفعل، أقسم إن الأمر ليس بيدي، فلا يلومني أحد".

قلت لها: "سأذهب لأشتري لك بعض الطعام فأنت لم تأكلي كما يجب منذ ثلاثة أيام، فماذا تحبين أن تأكلي؟".

أجابتني: "بعضاً من البسكويت فقط".

في المحل طلبت من البائع ثلاث شطائر باللحم والخضار وطلبت منه بعض البسكويت وقنينة شراب باردة وأتيت بالطعام لهزار فتساءلت مستغربة: "لمن أتيت بكل هذا الطعام؟ فأجبتها: إليك وستأكيلن شئت أم أبيتِ".

فقالت متوسلة لي: "صدقيني لا أستطيع أن أبتلع أي شيء، ليس الأمر بيدي، وبدأت تبكي".

أشفقت لحالها فقلت وأنا أبتسم: "أقسم إنك ستأكلين ما أتيتك به لأنني سأبشرك بخير تنتظرينه".

قفزت هزار كالمجنونة من مكانها وصرخت فهرعت إلى غرفتنا الفتيات من باقي الغرف ليستعلمن عن السبب!

فقلت لهن: "لا تقلقن، لم يحدث شيء، كنا نتمازح فشددتها من شعرها لذلك صرخت، وفور مغادرة الفتيات للغرفة سألتني هزار متوسلة لي: أين الرسالة؟ أستحلفك بالله".

فقلت لها مازحة: "لن تريها حتى تعديني بمكافأة".

فقالت: "سأقبلك من عينيك، هات الرسالة أرجوك، إنني أذوب الآن بسببك. فسلمتها الرسالة".

فقالت وهي تفتح الرسالة: "إي وربي هذا خط رشكو." قرأتِ الرسالة بسرعة واستغربتُ حينما رأيتها تغلق باب الغرفة وتناولني منديلاً وتقول:

"أرجوك شدّي هذا المنديل على خصري وانقري على هذه الآنية لأرقص"، وفعلاً فعلتُ كما طلبت مني واندهشت من رقصها الذي لم تتوقف عنه حتى ابتلَّ وجهها بالعرق وتعبت في حين أنها كانت تكرر قراءة الرسالة وتشمّها وتبتسم. التفتت إليَّ لتقول: "خذي اقرئيها أنت أيضًا ففيها ما يخصكِ أنت لكن شيلان أنا أتضوّر جوعًا، فأشرت بيدي نحو الشطائر، فأردفت: صدقيني هذه الشطائر لن تكفيني، أنا جائعة جداً".

جلست أقرأ رسالته إليها وهو يقول فيها: "وصلت للقرية وأنتِ كنت سبب عدم موتي، كثيراً ما شارفت على الموت لكن ظلّك كان يظهر لي ويقول: انهض لأجلي فأنا في انتظارك، فكنت أنهض وأواصل السير. قصة سفري طويلة لكني قد دوّنتُ كل شيء بالتفصيل كما طلبت مني. بالقرب من القرية داهمتنا عاصفة ثلجية، لكن الله لم يمتنا وأنتِ لم تفارقيني. بعدها فقدت الوعي ولم أشعر إلاّ وأنا في القرية. لا تقلقي بشأني، المكان الذي أعيش فيه جيد ويعجبني ولا شكوى لي منه. سأخبرك بشيء غريب حدث لي، ثقي بأنه حقيقة؛ لقد كنتُ والحارس هادي الليلة الماضية في فناء البيت ننظر للقمر في يومه الرابع عشر وقد أذهلني منظره مع بياض الثلج فكوّنا منظراً جميلا. ظللتُ أنظر للقمر طويلاً وذكّرني بك وقلت في نفسي: أنا متأكد من أن جميلتي تنظر إليه أيضًا لكن الغريب هو أنني رأيتك في وسط القمر، أغمضت عينيَّ ثم فتحتهما فرأيتك ثانية وكنت تنظرين إليَّ وتبتسمين فقلت لهادي: ماذا ترى في القمر؟ فظلَّ ينظر إليه وقال: أرى بعض النقط السوداء

يا أستاذ. فسألته: ألا ترى شيئًا آخر؟ فأجابني: لا وماذا فيه؟ لم أجرؤ على إخباره برؤيتي صورتك وبدأت أخرج كل ليلة لأراك في القمر وأنا سعيد بهذا جدًا، وماعدا حزني على فراق عينيك لا شكوى لي إطلاقًا من أي شيء. أوصيك خيرًا بالمذاكرة وأهديك هذه الأبيات:

قلتُ لك بأنك الروح

جميلتي التي تملكني

مالكة قلبي

اخترتك من هذه الدنيا

لتنيري عتمتي وحياتي

التي لا تطيب إلاّ معك ياروحي

لا أستطيع وصف جمالكِ

وكم هو مؤلم فراقك

حبيبك رشكو

وهذه السطور القليلة للأخت شيلان خاتون".

وما إن قرأت هذه الأسطر حتى بدأت بالضحك.

سألتني هزار: "خيرًا ما الذي يضحكك؟".

فأجبتها: "للمرة الأولى يسميني خاتون، أخشى أن أموت".

ثم كتب مازحاً باختصار: ابنة خالي أوصيك بهزار خاتون فهي أمانة الله لديك، واعلمي إذا أخبرتني هزار بأن الريح قد لمستها وتسببت في إيذاء شعرة من رأسها فسأحاسبكِ أنتِ، والجمر موجود كما تعرفين. قبلاتي لعينيك وأعين بيت خالي كلهم، كذلك أقبِّلُ أيديهم.

نزار

قلت لهزار: "تعالي هنا." لم تكن تعرف ماذا أريد منها. أمسكت بشعرها وشددته حتى صرختْ، فقالت لي: "هل هو طلب منك ذلك؟"

أجبتها: "لا، لكني لست خادمة لكما ليقول لي إن مسّ الضرُّ شعرة منها فالجمر في انتظارك." ضحكنا معا من كلام رشكو.

سألتني هزار: "لكن من أين أتيت بالرسالة؟".

فأجبتها: "يالك من فتاة مسكينة، لقد وصلت الرسالة منذ يومين ولأنها معنونة باسم هزار خان فلم يعرفوا أنها لك وكانت ملقاة هناك".

ياكبدي عليك ياهزار، لم تملى من إعادة قراءة الرسالة وهي تقول: "فديتك، فديتك." وتضيف: "ليتني كنت أنا في مكانك، فدتك نفسي"، وكانت تعيد قراءتها بين الحين والآخر وتغني وترقص إلى أن غلبنا النعاس ونمنا. صحوت من النوم لأرى هزار وقد وضعت الرسالة على عينيها ونامت، فأخذت الرسالة وخبأتها تحت وسادتي. في الصباح نهضت هزار كالمجنونة من النوم وأيقظتني لتسألني عن الرسالة: "شيلان أين رسالتي؟".

فأجبتها: "لا أدري لكن ربما سقطت على الأرض وجاءت عاملات التنظيف ورمتها مع القمامة بعد تنظيف المكان".

توسعت حدقتا عينيها بخوف وصرخت كالمجانين، بصراحة لقد أخافتني فأسرعت إلى التقاط الرسالة من تحت وسادتي ودفعتها إليها.
قالت لي: "اقتليني ولاتأخذي الرسالة".

مرة أخرى قرأتها وقبّلتها وغنتْ ورقصتْ بها.

قلت لها: "هلمّي بنا لنحضر الحصص ولنجهز حقيبتينا فاليوم سنعود لزاخو"، كررت شمّ الرسالة ووضعتها في حقيبتها وغادرنا بيت الطالبات للمعهد. بعد أن انتهينا من المحاضرات عدنا لبيت الطالبات وأخذنا حقائبنا وسافرنا إلى زاخو.في الطريق كانت هزار تضحك وتمزح وتتحدث دون انقطاع حتى وصلنا. همست في أذني قائلة: "أستحلفك بالله أن تذهبي أولاً لبيت الأستاذ وتستفسري من والديه عنه وبعدها اذهبي للبيت".

قلت لها بتهكم: "يبدو أنك ورشكو قد عثرتما على خادمة جيدة، صدقيني سآخذ وقتي في الذهاب إليهم غداً".

قالت لي متوسلة: "فدتك روحي لا تناديه رشكو بل قولي أستاذ نزار،" قبلتني وكل منا ذهبت لبيتها. حال دخولي للبيت استقبلتني والدتي فقبلت يدها وسألتها: "أمي، هل وصلتكم أخبار عن رشكو؟".

أجابت أمي: "نعم يا ابنتي لقد كنت في بيت عمتك قبل يومين وكانت المسكينة سعيدة جداً وقالت: لقد وصل للقرية بسلامة وأرسل إلينا رسالة. وكانت عمتك تصنع له بعض المعجنات لترسلها إليه".

في تلك الليلة فكّرتُ بهذين العاشقين وشعرت بالشفقة عليهما وقلت في نفسي: ماذا سيحدث لهما لو افترقا؟ وظلّت صورة هزار في خيالي حينما خبّأت الرسالة عنها ثم أعطيتها لها. في غضون ذلك استغرقت في النوم. في صباح اليوم التالي استأذنت أمي في الذهاب لزيارة عمتي.

....

هزار أيتها المسكينة

الراوي : شيلان

قالت أمي: "بلغي عمتك تحياتي، لقد سألتني عنك كثيراً عندما كنتُ هناك".

استقبلتني عمتي بترحيب كبير عندما وصلت إلى هناك لكن ملامحها كانت مغطاة بالحزن فعرفت أن شيئًا كبيراً قد حصل وتسبب في حزنها.

بادرتها بسؤالي: "ماذا تفعلين ياعمتي؟".

قالت بغضب وتهكم: "إنني أطبخ السمّ لعمك، إنه يريد كبّة باللبن."

من هذا الغضب الذي رافق أسلوبها علمت أن أمرًا كبيراً قد حدث.

فقلت لها: "دعيني أطبخ حساء اللبن عنك فطبخه متعب جداً وبحاجة لمراقبته وخلطه بالملعقة باستمرار".

أجابتني: "والله ياابنتي ستتفضلين عليّ بذلك، فكتفاي تؤلمانني جداً حينما أطبخها أنا."

قلت لها: "عمتي، أعتقد أن هذا الإناء الخشبي فيه شرخ".

فقالت لي: "وكيف لا يحدث فيه شرخ يا ابنتي فقد اشتريناه منذ تزوجت عمكِ!".

سألتها: "من أي جذع يصنعون هذا القدر؟".

أجابتني: "من شجرة الجوز أو البلوط".

قلت لها: "عمتي، مادمت هنا فأنا جاهزة لمساعدتك في أي شيء تريدين، فلا شيء يضاهي جرعة من الحليب الذي أرضعتِني إياه. ثم أردفت: عمتي أنت منزعجة وحزينة جداً، ما الأمر؟".

أجابتني بتنهيدة: "لا عليك يا ابنتي، هل تعتقدين أن النساء أو الزوجات بشر؟ أقسم إن هؤلاء الرجال يحسبوننا عبيداً عندهم." ثم استطردت: "هأنذا سأحكي لك كل شيء لكن ليكن هذا الكلام بيننا فقط، قبل يومين جاء عمك للبيت مبتهجاً وقال: ياأم رشكو سأبشرك ببشارة، وناولني كيساً فيه حلوى. فقلت له: أخشى أن تكون قد خطبت امرأة لنفسك. فقال لي: نعم خطبت فتاة لكن لرشكو. فقلت له: وأين رشكو؟ فأجابني: لماذا تسألينني، هل تعنين أنه لن يوافق؟ ألست والده؟ فقلت له: نعم أنت والده لكن أنسيت أن ابنك أستاذ الآن وجب أن تعرف إذا كان هو يريد ذلك أم لا. لقد تغير الزمن لم نعد كالسابق. فقال متسائلاً: أتعتقدين أن رشكو سيخذلني ويرفض الزواج؟ أجبته: كل شيء جائز.

فقال مصممًا: لا لا رشكو لا يخذلني أبدًا. قلت له: أخبرني، لماذا لم تنتظر حتى يأتي وتسأله فيشعر بأنه رجل وله وجوده وقيمته؟ قال لي بحزم: صدقت لكن الأمر خرج من يدي، ما نعرفه ونعمل به هو أن الكلمة الأولى والأخيرة هي للأب فقط. فسألته: ومن هي الفتاة التي خطبتها له؟ فأجابني: صدقًا لقد قمت بزيارة أخي في بيته فإذا به يقول: لقد كبرت ابنتي وصارت عروسًا وربة بيت ويتقدم لها خطاب كثيرون لكني أريدها أن تكون عروسًا لابنك وستخدمك أكثر من أي كنّة غريبة وبصراحة أعجبني كلامه. فقلتُ وقد ضغطت على نفسي كي لا أنفجر: ثم؟ أجابني: ثم ماذا؟ لقد وافقت فورًا وصافحته وقرأنا الفاتحة. فقلت غاضبة: طيب، ألستُ أنا أمه؟ لماذا لم تسألني رأيي؟ ألا قيمة لرأيي لديك؟ فأجابني غاضبًا: وهل أنتن يانساء تحتسبن من البشر لتحدثن أزواجكن بهذا الأسلوب؟ ماعليكن سوى الرضوخ لما يقوله الرجال بلا نقاش.

أدركت أن أية كلمة أخرى ستزيد الأمر سوءًا وقد يلجأ للعصا لتأديبي. فقلت له: مادمت لا أعني لك شيئًا فلمَ أخبرتني؟ الأمر بينك وبين ابنك فقط.

قلت لها: "والله ياعمتي غريب ما يفعله الرجال، عمي لايزال يعيش في الماضي، ألا يعرف أن التعليم أنار كل شيء في الحياة، لقد أخطأ عمي خطأً كبيرًا وأنا على يقين من أن رشكو سيرفض هذا الزواج. ثم سألتها: أية واحدة من بنات عمه اختاروها له؟ .

قالت: "فاطمة".

فقلت باستياء: "ماذا؟ ماذا؟ هذه لا تناسبه بالمرة، لا والله".

قالت عمتي: "قبل عدة أيام جاءت فاطمة بصحبة والديها، وكانت تلبس زيًا كرديًا واسعًا عليها ولا يناسبها أبدًا وكأنها بقرة عليها حلية. جلست لتساعدني في إعداد الخبز فنظرت إليها وأنا مستاءة لأجلها، إنها بدينة كبرميل، لها رأس كبير وشعر أشعث بارز من المنديل وشفتاها غليظتان وأسنانها متسوسة وفوق كل هذا تُتأتئ بالكلام فعندما تتحدث إلينا تملأ وجوهنا كل دقيقتين برذاذ البصاق. قلت في نفسي سيغمى عليّ الآن. كما أن صدرها مغطى بالطلاسم والأحجبة. قلت لها: ماهذه الطلاسم يا ابنتي؟ فقالت: أمي أوصت بعمل هذه الأحجبة لألبسها فتقيني من الحسد يازوجة عمي. فقلت لها: لتفقأ تلك العيون التي تحسدك وتحسد أمك".

لقد ساعدتني في إعداد خمسة أقراص من الخبز فكسرت(١) ثلاثة منها وقد ساعدتها أنا لترفع اثنين منها من على الصاج. قلت لها: يا ابنتي، أنت لم تتعلمي كيفية إعداد الخبز بعد فاتركيه لأنك ستكسرين الخبز كله. فقالت: صدقت يازوجة عمي، إن أمي تقول لي لست بحاجة لتعملي في البيت فأنت خاتون. قلت لها: في عُرفنا تكون الفتاة فعلاً خاتونًا عندما تجيد عمل البيت كله ونسميها راعية البيت، اتركي الذي بيدك وادخلي للغرفة.

ثم أكملت: "قولي لي، كيف لا أحزن ياشيلان يا ابنتي وأبوه يقول سأرسل رسالة لولدي رشكو أبشرهُ بهذا الخبر ليفرح، لقد قلت له: انتظر ريثما تأتي شيلان فتكتب الرسالة وأنت تعرفين كيف تكتبينها يا ابنتي، فقط اذكري له أن أمك تقول إذا أردت أن أموت سريعًا فاقبل الزواج من ابنة عمك هذه واعلم يا بني أني لا أستطيع النوم من الحزن".

قلت لها مطمئنة: لا عليك يا عمتي، وكما يقول المثل: تخيل عرس العازف الذي يعزف في عرسه، سأكتب له رسالة كما تتمنين بحيث تجعل ردة فعله تمنع والده من ذكر اسم فاطمة حتى في الأحلام. ثم أكملتُ: لا تقلقي ياعمتي، إن ابنك بمثابة أخ لي وأعرفه جيداً، أقسم إنه سيرفض هذا الزواج حتى لو كان بأمر من أبيه أو من غيره وحتى لو قتلوه، فاتركيه يُنهي هذا الموضوع مع أبيه وحدهما. بعض الرجال قليلو الحياء وأخشى أن يحرجك أمام الآخرين ويتلفظ بألفاظ سيئة فبعضهم لا يعتبر النساء من البشر!.

أجابتني عمتي بهدوء: صدقت يا ابنتي، لقد طمأنتني. أعرف ماتقولينه هو الحق فابني رشكو لن يقبل ولن يستطيع والده أن يفعل شيئًا له وإذا ضيّق عليه الخناق سيؤجر له بيتًا، وسأترك والده وأذهب للعيش معه مرفوعة الرأس وأهتم به دون أن يمنّ عليّ أحد أو يُسمعني كلمات جارحة. حسنًا فعلت إذ زرتني اليوم.

قلت لها: "لقد تأخرتُ ياعمتي، يجب أن أعود إلى البيت".

قالت لي: "تناولي غداءك عندنا يا ابنتي".

فقلت: "لا بل سأذهب للبيت لأتناول الطعام مع أمي التي تنتظرني ياعمتي".

قالت: "طيب، أبلغي والديك تحياتي، وكتابة الرسالة في عاتقك".

خرجت بقلب مكسور من بيت عمتي، لم أشعر بالرغبة في الذهاب لبيت هزار وقلت في نفسي: يامسكينة ياهزار، تنامين ورجلاك في الشمس(*). ذهبت للبيت مهمومة وفي بالي هذان العاشقان. في الليل فكرت مع نفسي: سأزور هزار غداً، يارب ألا يخبرها أحد بهذا الخبر، أقسم إنها ستُجنّ، ثم قلت: لكن لا، كلنا يعرف أن نزاراً سيرفض هذا الزواج كما أن لا ذنب له في قرار أبيه، لذا لا يستوجب أن نوجع قلوبنا الآن فلكل حادث حديث. لأكتب رسالة له الآن بطريقتي وفي خضم هذا التفكير استغرقت في النوم.

في اليوم التالي بعد الفطور، كتبت له رسالة وصفت له فيها ردة فعل هزار وهي تستلم الرسالة وكيف شددتها من شعرها بعد ذلك ثم أبلغته تحيات والدته وعرفت كيف أكتب له بقلب تضطرم فيه النار كقلب عمتي. أغلقت المغلّف وأخذته معي. استأذنت أمي لأذهب لبيت عمتي، في الطريق عرجت على بيت هزار، رحبت بي كثيراً وبادرتني بالسؤال: أخبريني هل ذهبت إلى بيت عمتك؟.

أجبتها: "نعم ذهبت إلى هناك، إنهم سعداء لأنه أرسل إليهم رسالة يطمئنهم فيها عليه وعمتي سترسل إليه بعض الكوليجة[٢]".

فردت بسرعة: "حقًا؟ وربي سأخبز له بيديّ هاتين وأصابعي هذه بعضًا من الكوليجة وليرسلوها مع ما أعدّوه له لكن قولي لعمتك إنك أنت من صنعها. ماذا قلت؟".

قلت لها: "طيب، على رأسي وعيني. سيفرح بها جدًا".

سألتني: شيلان، متى سنسافر للموصل؟

أجبتها: بعد غد بإذن الله. ثم سألتها: هل أرسلت رسالة إليه؟

قالت: بالتأكيد لقد أرسلتها البارحة مع قصيدة أيضًا.

قلت: "حقًا؟ لقد صرت شاعرة".

قالت: "نعم، نعم من أجل رشكو".

قلت: "سأذهب الآن لأزور عمتي ثم أعود للبيت لأذاكر لبعض من الوقت." انصرفت بعد أن ودّعتها وذهبت لبيت عمتي، أعطيت الرسالة لعمتي وسألتها: "ماذا يقول اليوم عمي؟".

قالت عمتي: "صدقيني يا ابنتي يبدو لي مذهولاً وكأنه يدرك مدى الخطأ الذي ارتكبه لكنه يقول: الموت عندي أفضل من التراجع عن قراري".

قلت لها: "أقسم إنه سيتراجع جداً، لندع الرسالة تصل للأستاذ أولاً ثم سيرى عمي النتيجة." ثم أكملت: "لقد خبزت بعض الكوليجة له أيضاً، أرسلوها مع الصرة التي جهزتموها له." ودّعت عمتي وانصرفت عائدة للبيت.

---

(١) كسر الخبز الكردي أثناء خبزه على الصاج يعني قلة خبرة وهو دليل على عدم استعداد الفتاة للزواج.

(٢) كوليجة: هي كعك العيد أو المعمول الذي تصنعه الأمهات في المناسبات وخاصة الأعياد في المجتمعات الشرقية.

كـلّة ورَشـك

الراوي : نزار

ناديت الحارس: "هادي، هادي".

أجابني: "نعم يا أستاذ، لقد سقط ثلج جديد".

فقلت: "وكيف سنذهب للمدرسة غدا؟".

أجـابني هادي: "سـأذهب الآن للقـرية لأجلب لنفـسي (كلّة) وإليكَ (رَشكا) لنتمكن من الوصول للمدرسة".

سألته: "وماهي تلك؟".

أجابني: "أستاذ، بالنسبة لـ (كلّة) فهي مصنوعة من شجر الجوز أو البلوط وهي بشكل آنية تقديم الطعام لكنها محدبة كالصاج الذي نخبز عليه لكنه مقلوب وفيه مكان لربط القدم ، فعندما ينزل ثلج جديد، الشخص الذي يرتدي الكلّة في قدمه يسير في المقدمة لأن قدمه تضغط على الثلج دون أن تنغمس فيه فتسهل على السائرين وراءه المشي فوق الثلج".

سألته: "وماذا عن الـ (رشكا)؟".

أجابني: "أستاذ، هذه مصنوعة من خيوط شعر النعجة وتنسج بصورة دقيقة على شكل آنية صغيرة بحيث إنها لا تغطس في الثلج بسهولة".

قلت له: "جيد جداً".

قال: "فعلاً لكنك بحاجة الى أن تتعلم كيف ترتديها".

قلت له: "ليست صعبة، اذهب وأتنا بها. كم يومًا مضى علينا ونحن مواظبون على الدوام في المدرسة؟".

أجابني: "أستاذ، مضى علينا أسبوعان".

قلت له: "قل للطالبة خناف أن تبلغ الطلبة بأننا سنستمر في التدريس لهذا الشهر كله".

قال: "حسنا يا أستاذ، فالطلبة وأولياؤهم سعيدون بك، والخال حسو يبلغك التحية وسيزورك الليلة مع بعض رجال القرية".

قلت: "مرحبًا بهم دومًا".

عند الظهر سبقني هادي للمدرسة ليقوم بتنظيفها وتهيئتها لدوام ما بعد الظهر. بينما كنت أتهيأ للحاق بهادي تقدّم مني عند الباب رجل ضخم الجسم كدبٍ، بعد أن اقترب مني وألقى التحية عليٍّ وصافحني أدركت أنه حيتو الذي وصفه لي هادي بدقّة.

قال لي: "أنا حيتو".

قلت له: "تفضل".

قال بثبات: "أستاذ، إن (هادي) لا يترك شيئًا للمدرسة إلاّ ويستولي عليه وهو لا يهتم بها، أما أنا فرجل شريف، أريد أن أعمل بدلاً منه، سترتاح معي جدًا وسأقوم بخدمتك وخدمة المدرسة معًا".

قلت له غاضبًا: "إنه شيء لا يعنيك ما يفعله هادي، اغرب عن وجهي ولاتأتِ هنا أبدًا".

خفض رأسه وغادر المكان. في تلك الليلة أقبل رجال القرية يقودهم الخال حسو الذي أحببته كثيرًا، فقد كان رجلاً بهي الطلعة وقورًا، له حاجبان أبيضان ويبلغ حوالي السبعين من العمر. في أول لقاء لي به أدركت أنه رجلٌ واعٍ من طريقة طرحه للأسئلة عليّ ورغبت فعلاً أن يأتي ليزورني ليليًا. كانت هذه هي المرة الرابعة التي يزورني فيها مع رجال آخرين، رحبت بهم كثيرًا وقلت لهم: "زوروني كلما سنحت لكم الفرصة".

قال الخال حسو: "أستاذ، يسعدنا أن نزورك ليليًا فنحن نستفيد منك كثيرًا لكنك مشغول دائمًا لذلك نتردد في المجيء".

قلت: "لا، لا ليس لدي ما يشغلني في الليل كما أنني وحدي لذا أحب أن تزوروني كل ليلة".

أجابني: "شكرًا لك يا أستاذ".

في اليوم التالي قال لي هادي: "أستاذ، إن سمو سيسافر إلى زاخو غداً فبماذا تأمره؟".

قلت له: "اطلب منه أن يأتيني إلى هنا".

قلت لسمو بعد أن دخل وحييته بمثل تحيته: "سمو، أنت ذاهب لتأتَي ببريد المدرسة، خذ هذه الرسائل وضعها في صندوق البريد ثم اذهب عند أبي وأتني بما سيرسله لي وأخبره أن يرسل لي تمراً أيضاً".

قال سمو: "حسناً يا أستاذ، على عيني".

في اليوم الذي يليه انتظرت سمو لكنه لم يأت حتى بعد انتهاء صلاة العشاء. بقيت واقفاً أمام باب البيت أنتظره حتى أتى وأعطاني ما أرسله والدي إليَّ فنقدته مبلغ ربع دينار فرح به كثيراً. دخلت البيت بسرعة فتحت رزمة البريد ووجدت رسالتين إحداهما من جانيه والثانية من والدي لكنها بخط يد ابنة خالي شيلان، بلهفة فتحت رسالة جانيه ولم تسعني الدنيا من الفرحة وهي تخبرني بأنها أرسلت لي قصيدة كتبتها وكعكاً صنعته بيديها من أجلي. تقول في قصيدتها:

هيأت نفسك للترحال لا تطل السفر والغياب

أخشى أن تنسى الأيام الماضية فينهار قلبي بسببك

لا تنسني أتوسل إليك أنا هنا في انتظارك

ليكن الخير في سفرك وفي رعاية الله

قلت مبتهجاً: آآه، حبيبتي صارت شاعرة! صدقيني جانيه قصيدتك جميلة. بعدها قرأت رسالة والدي فصعقت. أعدت قراءتها وفي كل مرة كانت دهشتي تزداد، علمت أن شيلان هي من كتبت الرسالة. لازمني الحزن فأمسكت بالقلم فوراً وكتبت رسالة قصيرة لوالدي ووضعتها على جنب في انتظار من سيسافر إلى زاخو ويأخذها معه وكتبت رسالة إلى جانيه ثم واحدة لشيلان. شعرت بحزن كبير مما كتبه والدي لكني هوّنت الأمر على نفسي وأقسم على أن لا أبي ولا أحد على وجه الأرض يستطيع أن يبعدني عن حبيبتي. أخرجت الكعك الذي صنعته لي جانيه وأكلت كعكة واحدة فقط واحتفظت بالباقي قريباً من سريري حتى تلفحني رائحته الزكية، إنها تذكرني بجانيه!.

....

أيها المسكين نَمو

في تلك الليلة زارني رجال القرية مرة أخرى ودار الحديث حول ثلاثة أو أربعة مواضيع رئيسية ، وفي كل ليلة كنا نختار أحد هذه المواضيع ونتحدث عنها. كان هؤلاء الرجال واعين جداً لكنهم كانوا بعيدين عن العلم والتعلم والمدنية بسبب سكناهم وقد تربّوا على الحكايا التي ورثوها من الأجداد. من خلال أسئلة الخال حسو الكثيرة فهمت أنه يريد أن يعرف الكثير فمثلاً كان يسألني عن كيفية عمل الراديو والمسجل وهل صحيح أن الجنّ يسكنهما كما يقول الفقيه عَبو؟

تحدثنا كثيراً حول هذه المواضيع وشرحت لهم أن هذه الاختراعات حصلت بسبب العلم والدراسة وفي إحدى الليالي قال الخال حسو: ثق يا أستاذ بأننا نسمع بأشياء كثيرة لكننا لا نصدقها ونشعر بالحرج من السؤال عنها. لكن الفضول يدفعني لأسألك. نمو يعمل في بغداد وقد جاءنا قبل فترة من الزمن بكذبة أكبر من جبل الجودي. لقد كذّبناه بشدة وسخرنا منه حتى أنه ماعاد يخبرنا بشيء من يومها.

قلت له: "عساه خيراً ما قال".

أجابني وفي صوته دهشة واضحة وعيناه تحدقان فيَّ: "يقول إن هناك في بغداد صندوقًا كبيرًا تستطيع من خلاله أن ترى وتسمع المغنين والمتحدثين وتشاهدهم وهم يجيئون ويذهبون وغير ذلك، فماذا تقول في هذا يا أستاذ؟".

قلت: "نعم، فعلاً هذا صحيح ياخال! ويطلقون على هذا الصندوق اسم تلفزيون.

فصاحوا جميعًا: "يامسكين يانمو." ثم قال الخال حسو: "لقد استهزأنا به وهاجمناه بسبب هذا الكلام. يجب أن نصدق من الآن فصاعداً فكل شيء جائز هذه الأيام." ثم أردف: "لكن قل يا أستاذ: هل هؤلاء لديهم أدمغة أكبر مما لدينا لذا هم أذكى منّا أم أنهم يدرسون ويتعلمون أفضل منّا؟"

قلت: "ربما فيكم من يتفوق عليهم بالذكاء لكنهم يتفوقون علينا بالتعليم والدراسة والبحث، ولو حدث وتعلمنا مثلهم فقد نتفوق عليهم في مجالات كثيرة".

كذلك سألني أحدهم: "هناك بعض المجموعات التي تدعو إلى وحدة الكرد تحت اسم القومية الكردية. ما رأيك في دعوتهم؟".

أجبتهم: "يجب أن نؤيدهم ونختار قادة لنا من خيرة رجالنا ليقودوا الشعب وإلاّ فسنضيع".

سألوني أسئلة كثيرة كنت أجيبهم عليها مع شرح مفصل حسب معرفتي فكانوا يبتهجون لما أقول. بصراحة كان هدفي الذي نصبته أمام

عيني من الذهاب للقرية هو لتعليم الصغار ومحاولة تغيير بعض مفاهيم وأفكار الرجال وقد نجحت فعلاً في إضفاء بعض التغيير الطفيف عليهم واعتبرتها بداية جيدة. كنت سعيداً بالقرية التي أنا فيها أكثر من سعادتي بالوادي كله. كنت أصطحب (هادي) كل يوم ونتجول في القرية لنزور إحدى العائلات وكانت زياراتي هذه تسبب فرحة كبيرة لكل من نزوره وكانوا يصيحون من بعيد: الأفندي جاء لزيارتنا. فعلمت أن زيارتي تعدُّ شرفًا لهم لذا قمت بزيارة الجميع. لقد صيّروني حكيمًا عليهم يستشيرونني في الأدوية التي يتعاطونها لكن الفقيه عبو كان يحذرهم من تناول الدواء الذي أشير عليهم به رغم أن أغلبيتهم وجدوا شفاء من العقاقير التي أصفها لهم. استمر بي الحال هكذا دون مشاكل باستثناء بعدي عن هزار، فهي لم تكن تفارق خيالي ولا حتى لحظة واحدة. قلت لهادي يومًا: عندما ينوب الثلج سنذهب كل يوم جمعة إلى إحدى هذه القرى القريبة لأتعرف على الناس في تلك القرى أيضًا.

قال هادي: "أقسم إنهم سيفرحون بذهابك إليهم فهم أناس جديرون بزيارتك لهم".

قلت له: "أنا متأكد من ذلك ياهادي".

....

موسى المجنون

الراوى: شيلان

في بيت الطالبات دخلت غرفتنا فرأيت هزار والدموع تترقرق في عينيها! خشيتُ أن تكون قد علمت بقضية زواج رشكو من فاطمة ابنة عمه.

سألتها: "ماذا حصل؟ لماذا أنت حزينة؟"

أجابتني: "يا لشقائي، لقد مرّت عشرة أيام دون أن تصلني رسالة من رشكو، وها نحن عائدتان إلى زاخو فكيف لا أحزن؟"

قلت لها مازحة : "لقد قلت لي سابقًا لو وصلتني رسالة واحدة منه فقط فسأطمئن عليه وبعدها لا يهمني إن لم يرسل لي المزيد، ثم ألا تعرفين أن المدة ما بين استلامه لرسالتك ووصول رسالته إليك تستغرق على الأقل عشرين يومًا؟ اهدئي رجاءً".

قالت: "أنت مُحقة لكن ماذا أفعل بقلبي؟ ليتك تشعرين بالنار المشتعلة فيه".

قلت لها: "هيا نجهز حقائبنا للسفر وإلاّ تأخرنا".

أجابتني بحزن: "اذهبي أنت، أما أنا فباقية هنا".

قلت بإصرار: "ماذا تقولين؟ لمَ لا تأتين معي؟ أخبريني ماذا أنت فاعلة هنا وحدك؟ انهضي وكفّي عن الدلال، سنتأخر في اللحاق بآخر سيارة ذاهبة إلى زاخو".

فقالت بامتعاض: "حسنًا سآتي، ساعديني في تجهيز حقيبتي".

حملنا حقيبتينا ونزلنا للطابق الأرضي وهناك فوجئنا بساعي البريد يدخل البناية ولمّا كان الوقت الرسمي للدوام قد انتهى ولم تبدأ الخفارة بعد، فقد مدَّ ساعي البريد يده بالرسائل إلينا وقال: أعطوا هذه الرسائل لمديرتكم.

قلت له: "لا أحد في المبنى حاليًا".

قال: "ضعوها على مكتب المديرة في غرفتها."

أخذنا البريد وقبل أن نصل للغرفة فتحنا المغلف الذي فيه الرسائل وكانت رسالة هزار أول الرسائل. ما أن وقعت عين هزار على رسالتها حتى التقطتها بسرعة فسقطت بقية الرسائل على الأرض وبدأت تصيح من فرحتها. لملمت الرسائل المتناثرة ووضعتها على المكتب. قرأتْ هزار الرسالة وكررتْ قراءتها، ونحن في السيارة التي تقلّنا إلى زاخو، ولم تتوقف عن الضحك والمزاح طوال الطريق حتى وصولنا إلى زاخو. كتب لها رشكو هذا الشعر الذي قرأتْه لي:

أملى

هل سيأتي يوم أجتمع فيه مع جانيه وحدنا ؟
فأبقى معها في بستان دون ملل لعام كامل
فننام بين الزهور ونستيقظ على زقزقة الطيور
ولتكن الأرض سجادتنا والسماء غطاءنا

ثم أعطتني الرسالة وقالت: "خذي اقرئي ماكتبه لك هنا".

كتب لي رشكو:

شيلان يامقصوفة الرقبة، كيف تجرُئين على شد شعر حبيبتي جانيه؟ فلتصب يداك بالجرب. كنت انتظرت حتى آتي أنا وكنت عوضًا عن ذلك نتفتِ شعري أنا، لكن صبراً طيبًا سألقنك درسًا عندما أعود بتلك الجمرات وسأشد شعرك ولن ينقذك مني حتى عمتك، وسأزوجك لموسى المجنون. لقد أرسلت لك رسالة خاصة. شيلو لا تكرري مافعلته أفهمتِ؟ تحياتي للجميع، اغفري لي ما قلته يا أخيتي العزيزة فقد أحزنتني جدا.

قلت لهزار: "أستحلفك بالله هل قرأت ماكتبه لي رشكو حبيبك؟"

قالت: "ثقي لم أفعل."

قلت لها: "إذن خذي واقرئي ما كتبه لي. أقسم لو لم نكن في السيارة لشددت شعرك حتى أنتفه كله، هو سيأتي وأنا أدرك ماهو فاعل بي".

بعد أن انتهت من قراءة الرسالة غرقت هزار في الضحك حتى ظننت أنها سيُغمى عليها وقالت: ومن هو موسى المجنون؟.

قلت لها: "موسي، موسيى، موسى واحد فقط في زاخو، هذا الرجل الذي يدور حول نفسه وينام في شوارع زاخو. كلما ضايقت رشكو يهددني بأنه سيزوجني للمجنون موسى".

قالت: "كيف يفكر هكذا ويجد المجانين مناسبين لك؟"

أجبتها: "صبراً طيباً حتى يأتي وأراه".

قالت: "شيلان وربي إنه يمزح".

قلت لها: "نعم، نعم أعرف ذلك كل هذه العصبية لأنني شددت شعرك".

أجابتني: "أنتم كالإخوة وتربيتم معًا فلا تأخذي كلامه على محمل الجد".

قلت لها: "لا، لا طبعًا فأنا أعرف ذلك، لكنه مسكين ومشتاق لك كثيراً".

وصلنا إلى زاخو قبل مغيب الشمس. وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة في البيت توجهت فوراً إلى بيت عمتي.

....

الابن البار

الراوى : شيلان

ما إن رأتني عمتي حتى قالت: "نزلت أهلاً يا ابنتي، قبل كل شيء، تفضلي هذه رسالتك التي أرسلها إليك نزار، كما أن عمك ينتظر قدومك كي تقرئي له رسالته فهو يقول: لا أريد أن يعرف بهذه المسألة سوى شيلان".

سألتها: "وأين عمي الآن؟".

أجابتني: "حان وقت عودته".

إذا بعمي يدخل إلى البيت ويقول: "مرحبًا بك يا ابنتي. كنت بانتظارك، اقرئي لي هذه الرسالة من فضلك".

فتحت الرسالة وبدأت أقرأ:

تحيتي واحترامي وقبلاتي لأمي وأبي. أبتي، أنا أحترم أي قرار تتخذه.

فتهللت أسارير عمي وقد تجلّى الغضب على ملامح عمتي.

فأكملت القراءة: لكن فيما يخص مصيري فأنا الوحيد الذي يعرف ويقرر ماهو في مصلحتي، وقد ذكرت مراراً أن بنات عمومتي وأخوالي هن بمثابة أخوات لي فنحن قد كبرنا وتربينا معًا فاغفر لي يا أبي وقل لعمي إنك موافق على الزواج لكن نزار هو صاحب القرار النهائي واترك الباقي عليَّ، أمّا إذا بقيت تصرُّ على رأيك وتعتبر رفضي هو إهانة لك وخروجًا عن طاعتك، فأظن أنك لن تراني أبدًا لأنني سأتقدم بطلب التدريس في قضاء العمادية وسأذهب للعيش هناك وأصطحب والدتي معي.

كنت أرقبهما وأنا أقرأ الرسالة فكانت أسارير عمي تتقلص تدريجيًا حتى اشتدت أوردةُ عينيه ولكن الفرحة كانت تبدو على ملامح عمتي التي خشيت أن تُظهر فرحتها أمام عمي.

وجّه عمي بسؤاله لعمتي: "هل يعجبك ما يقول ابننا؟".

أجابته بثقة: "وماذا بيدي لأفعله؟".

قال عمي: لقد حذّرني الآخرون من مغبّة تعليم ابننا ولم أبالِ وها هي النتيجة! هل صحيح ما يفعله بحقي؟ من منّا صبيانا وبناتٍ كان يجرؤ على مخالفة رأي أبويه؟ كان الأب يقول: ابني لقد خطبتُ لك ابنة فلان فيردُّ الابن: كما تشاء يا أبي. هذا هو ماتعلموه من المدرسة والتعلّم، والله أعلم ماذا سيحصل أيضًا؟ ألا تتفقين بالرأي معي يا ابنتي شيلان؟

قلت له بهدوء: "وربي إن رشكو لم يخطئ بقوله هذا، إنه مصيره وهو يتحمل نتيجة قرارهِ سواء أكانت جيدة أم سيئة".

قال لي مستاءً: "وأنت أيضًا ابنة المدارس ولا أستطيع مجاراتك بالكلام فأنتم كالمحامين تشبهون الشجرة التي تغني أربعين لحنا في وقت واحد فقد تعلمتم على يد الشيطان واقتبستم علمه. ليحمنا الله منكم".

التفت لعمتي قائلاً: "ماذا عن فكرته للذهاب لقضاء العمادية؟".

أجابته عمتي: "لا أدري بالضبط لكنه قال لي يوما وكانت شيلان حاضرة إنه ينوي الاقتران بفتاة من هناك".

فقال عمي ممتعضًا: "ولماذا لم تذكري لي هذا الشيء؟".

فقالت عمتي منتصرة: "وهل سألتني أنت قبل أن تخطب ابنة أخيك له لأذكر لك قوله هذا؟".

قال عمي: "هذا ليس شأنكن أنتن معشر النساء، قولي لي من تكُنّ حتى نسألكنَ رأيكنَ في أمور كهذه؟ ثم استطرد: ثقي لو كنت أعرف بما ينويه لكنت خطبت له فتاة من العمادية لأنهن جميلات خلقًا وأخلاقًا وأنا لي أصدقاء طيبون هناك. بعدها استند برأسه على كفه وأطرق مفكرًا وسمعناه يتمتم بهذه العبارات: لقد أخطأتُ في الموافقة على تزويجه كان الأجدر بي أن أتركه يختار زوجته، وليذهب والده للجحيم (دليل على استيائه). ثم وجّه سؤاله إلي وقال: ماذا أفعل يا ابنتي؟ قولي لي، ثقي بأن الموت أهون عليَّ من الرجوع في قراري، فأنا سأفقد أخي أو ابني في أي قرار أتخذه. ماذا أفعل يا ابنتي شيلان؟ أخبريني ماذا أفعل؟".

قلت له بعد أن فكرتُ قليلاً: "اطلب من أخيك حميد أن يخبر أبا فاطمة بأنكم تنتظرون قدوم نزار ليقرر ذلك فإذا وافق فكل شيء سيتم كما يشاؤون."

فكّر لهنيهة ثم قال: "أنت محقة يا ابنتي، والله هذه المدارس تعلمكم الحكمة والتبصر في الأمور، سأذهب الآن لأخي حميد وليكن مايكون."

بعد أن غادرنا عمي قالت عمتي: "مايغيظني أن فاطمة تجوب السوق مع أمها لشراء لوازم الزفاف، لا أدري لمَ العجلة في هذه الأمور؟ أقسم إن ابني قد أراح قلبي بكلامه، حلال عليك الحليب الذي أرضعتك إياه ياولدي، فدتك روحي، أقسم إن النوم جفاني طيلة هذه الأيام."

فتحت الرسالة التي أرسلها نزار لي وكانت قصيرة جداً وقد قال فيها:

أشكرك يا ابنة خالي على ما تفعلينه من أجلي لكن لا تدعي هزار تعرف بالأمر وإذا حدث وعلمت بطريقة ما فأعطيها هذه الرسالة: لا تقلقي حبيبتي جانيه فلا أحد على وجه هذه الأرض يستطيع أن يبعدك عني أو يأخذك مني ماعدا ملك الموت فلا تقلقي وأنا عند وعدي وسترين.

حبيبكِ رشكو

عاد عمي بعد قليل إلى البيت وقال لي: "اكتبي لي جواباً على رسالة ذلك الحليق الرأس (يقصد رشكو)، وأتى لي بورقة وقلم، وقال اكتبي ما أمليه عليك، وبدأت أكتب:

جيد ما فعلت يا ابني البار! كنت أتمنى لو أنك قتلتني كان خيراً من أن تخذلني هكذا مع أخي، كان الأجدر بك أن توافق وألا تمرّغ وعدي في التراب حتى لو كانت العروس ضريرة أو صلعاء. من الآن فصاعداً لن أهتم بهذا الأمر فليُقبَر أبوك، أنت اختر لنفسك واحدة عارية الأطراف وسائبة مثلك* حتى يغضب الله علينا وتحل علينا لعنته. ثم قال: هات الرسالة لأرسلها إليه، فقد يتراجع عن عناده، لو اختار أن يقتلني كان أفضل لي كثيراً.

قلت له: لا تبتئس ياعمي، إنه النصيب، ألا يقولون في المثل، لا يُعرف نصيب العروس حتى لو وصلت إلى ماوراء ستائر بيت العريس(*)؟ يبدو أن الله لم يكتب لهذا الزواج أن يتم، فلا الخطبة عيب ولا الرفض عيب، لا أجد في ذلك أي خطأ، أنت تبعث الحزن في نفس ابنك المعلم وهو في غربته وحده، ألا تخشى أن يصيبه مكروه؟

قال لي مبتسماً: أها بدأت محاميته تدافع عنه، آه من هذه المدارس. صدقت يا ابنتي، إنه ابني وسأخطب له من يشاء لكني سأكون شديداً معه كي لا يكرر عصياني، أليس ما أفعله صواباً؟

أجبته: "بلى عمي إنه الصواب".

تمتمت مع نفسي: "صبراً ياعمي، فأنا سأكتب له رسالة وأخبره بكل ماقلت الآن".

نهضت بعدها واستأذنتهم للعودة إلى البيت وما أن وصلت إلى البيت حتى كتبت لنزار هذه الرسالة:

أخي، لقد كتبت إليك رسالة عن أبيك لكن لعلمك هو نادم على ما فعله إلاّ أنه يأبى أن يُظهر ذلك ويأمل منك أن تتراجع عن كلامك ، وقد قال لي ولأمك إنك ابنه وسيخطب لك من تشاء فاطمئن هو غير غاضب عليك.

شيلان

....

الخُطّاب

الراوى : شيلان

عدت للبيت، بقيت أفكر بعمتي وزوجها في تلك الليلة، فعلاً إن بعض الرجال غريبو الأطوار، فهم يعتبرون المرأة مجرد خادمة والأبناء والبنات مجرد عبيد، ولأن التعليم والمدارس فتحت عيون الناس على الحقائق فتجد هؤلاء الرجال مستائين، غريب أمرهم، وغفوت وأنا في غمرة هذا التفكير. في الصباح الباكر وبعد انتهائي من وجبة الفطور بدأت بالمذاكرة ففوجئت بهزار تدخل بيتنا . ذهلتُ من هيئتها! بادرتها بالسؤال: "ماذا أصابك يابنت؟".

أجابتني بارتباك وهي تعلّق عباءتها[1] على المشجب في الزاوية قرب الباب: "ماذا بي؟".

قلت لها: "تبدين شاحبة وعيناك جاحظتان وشعرك أشعث! قولي لي ما بك؟".

قالت بحزن: "اتركيني لهمّي، إن الله لم يكتب لي السعادة، فإن مرَّ علي يوم سعيد فإن أياماً تعيسة تعقبه! وتخرج لي المتاعب من تحت قدمي[2] لا أدري ماذا أفعل أو أين أهرب!".

قلت لها مازحة: "اذهبي للأستاذ".

أجابت بسرعة: "أتمنى، أتمنى ذلك ياشيلان ليتني كنت خادمة في بيته أو حتى شعرة في رأسه، أين هو؟ أتعرفين، بعد أن وصلت للبيت البارحة وجدت عمتي وأولادها في بيتنا".

قلت في لهفة: "نعم، نعم أكملي".

أجابتني: "ماذا أقول لك؟ أستشهد لك بالمثل الذي يضربه رشكو (من علامات المطر الرياح ومن علامات الموت ارتفاع الحرارة)".

سألتها: "هل في المسألة خطوبة مرة ثانية؟".

قالت: "نعم وماذا تتوقعين غير ذلك؟ ليتهم كانوا هنا فقط للخطوبة."

قلت: "لم أفهم، ماذا تقصدين؟".

قالت: "لقد تمت خطبتي ووافق أبي دون أن يسألني عن رأيي وقد اتفقوا على كل الترتيبات وكانوا بانتظار وصولي للبيت ليعقدوا القران ويتم زفافي بعدها مباشرة ويأخذوني لمدينة الموصل محل سكناهم كي يسهل علي الذهاب للمعهد وإكمال دراستي".

قلت لها: "ما هذا؟ كيف يتفقون دون أن يسألوك رأيك؟".

قالت لي: "حالما وطئت قدمي باب بيتنا هرعت عمتي تستقبلني وألبستني قلادة من ذهب وهي تزغرد، استغربت لما فعلت وقلت لها: ما الخطب؟ ماذا جرى؟.

قالت عمتي: "أنت كنّتي الآن. لقد خطبتك من أبيك ووافق واتفقنا على كل شيء".

شهقت! شعرت بدوار واسودّت الدنيا في عيني، رأيت طيف رشكو ماثلاً أمامي وبغضب شديد انتزعت القلادة عن رقبتي ورميتها على الأرض. استغرب الجميع من غضبي وردة فعلي وقلت لهم بغضب: "يبدو أنكم نسيتم أني إنسانة وحسبتموني دجاجة أو نعجة كي تهبوها بهذا الشكل أو لأنكم تستهينون بالمرأة فإنكم تزوجونها كما يحلو لكم؟ لا أبي ولا أي شخص يستطيع أن يحرمني من اختيار شريك حياتي، لست جارية عند أحد".

نظرت عمتي إلى أمي وقالت: "هذا ما تعلمته ابنتك من المدرسة، أيرضيك ما قالته؟ في زمننا كان أهل العروس يقولون لأهل العريس: اعتبروا ابنتنا نعلا وانتعلوه".

وقبل أن تجيبها أمي قلت لها بتهكم واضح: "فعلاً وكانت النتيجة أن أهل العريس كانوا يحتفون بالعروس ويتوجونها بوردة وسبع نرجسات أليس كذلك؟ ألم تفقد العروس احترامها وقيمتها في بيت العريس وكانت العصا معلقة فقط لضربها، فحياة أي حيوان أغلى من حياتها؟ أقسم على أنه لا مخلوق على وجه الأرض يجرؤ على قول ذلك لي، فكيف ترضين يا معشر النساء أن يُقال بحقكن هذا القول وترضين بحياة الذل هذه؟ حتى لو قالها الرجال فلا يجب أن تؤيدنهم، ألا يهمكن أسلوبهم المهين في معاملتكن كالخادمات. أجبنَني بالله عليكن. فعلاً إن التعليم فتح لنا آفاقًا جديدة لحياة أفضل بحرية وكرامة وكبرياء".

طأطأت النسوة رؤسهن ولم تنبس أي واحدة من الحاضرات ببنت شفة ماعدا خالتي شقيقة أمي فقد أسعدها كلامي وقالت: "لقد أثلجت قلبي بقولك هذا، يبدو أن التعليم يرينا سبل استرداد حقوقنا المسلوبة أو على الأقل نعرف ماهي هذه الحقوق وبالتالي سنجرؤ على المطالبة بها." مرة أخرى طأطأت النسوة رؤوسهن، ثم استطردت خالتي قائلة: "صدقت والله يا ابنتي، نحن ننسى بسرعة فلمْ نهنأ بحياتنا قط، على الأقل لتنعم بناتنا بالحرية التي حُرمنا منها".

قلت لهزار بلهفة: "هيا أكملي كلامك، أكاد أفقد وعيي. ثم ماذا حصل؟".

قالت: "جاء الشيخ بعد صلاة العشاء ليعقد قراننا لأنهم متفقون وقد تم ترتيب كل شيء حسب اعتقادهم".

قلت وبلهفة أكبر: "أسرعي بالكلام، سيغمى علي".

قالت: "قبل أن يستدعيني الشيخ، غطيت رأسي بمنديل ودخلت إلى الغرفة المملوءة بالرجال وأبي بينهم، ألقيت التحية عليهم ورحبت بهم، كانت الدنيا معتمة في نظري حتى أني لم أتبين أحداً من الحاضرين."

فاجأني أبي بقوله: "حسناً فعلت يا ابنتي أنك دخلت الغرفة فالشيخ بانتظارك ليستئذنك".

قلت له متسائلة: "يستأذنني في ماذا يا أبتِ؟".

أجابني: "لقد زوّجتك يا ابنتي لابن أختي والشيخ هنا ليعقد قرانكما".

أحسست وكأن شظايا من نار تتناثر من عينيّ لشدة غضبي وماعدتُ أنظر إلى من في الغرفة لأعرف إن كانوا بشراً أم لا!.

قلت له وصوتي يرتعش خوفًا وغضبًا: "وهل أنا دجاجة أو نعجة يا أبتِ؟ لماذا لم تسألوني قبل أن تتفق مع عمتي؟".

لاحظت نظرات التعجب والغضب على وجوه الحاضرين.

أجابني أبي: "منذ متى كنا نسأل بناتنا في زواجهن؟ القرار هو قرار الأب وحده".

قلت له: "لقد ولّى ذلك الزمن يا أبتِ،" ثم سألت الشيخ: "ياشيخنا إن لم أكن موافقة على هذا الزواج فهل ستعقد قراني؟".

قال الشيخ: "لا لا يا ابنتي لا يجوز ذلك إطلاقًا".

قلتُ لأبي: "أنتم تتكلمون باسم الدين، والدين لم يعطك الحق في تقرير مصيري عني، إنه مصيري ولا أحد يستطيع أن يقرره أفضل مني".

استبد الغضب بأبي فصرخ بي قائلاً: "هل هذا ما تعلمتِه في المدارس؟"

أجبته بهدوء: "نعم يا أبي، تعلمنا أن المرأة كائن بشري له حقوق كالرجل تمامًا".

أطرق أبي كاتمًا غيظه وقال: "لقد وعدتهم بتزويجك لابنهم ولن أتراجع عن وعدي، وإذا أنت مصرّة على الرفض فسأتبرأ منك ليوم الدين".

قال الشيخ لأبي: "اعذرني لن أعقد قرانها لأنه باطل، فلا ترغمها على هذا الزواج".

حمل الشيخ كتبه ونهض ليغادر المكان، سبقته إلى خارج الغرفة وفي الممر المؤدي للباب الخارجي للبيت سكبت على رأسي النفط المستخدم للتدفئة والطبخ وتعمدت أن يراني الشيخ وتظاهرت بالبحث عن علبة الكبريت لأضرم النار في نفسي، فما أن وقعت عينا الشيخ علي حتى بدأ يصرخ ويستغيث وتقدم مني محاولاً تهدئتي وطابعًا قبلة على جبيني، وتجمع الحاضرون رجالاً ونساءً حولي، وبدؤوا يتمتمون ويهمهمون بالكلام.

قلت لهم: ما دمتم ستفرضون عليَّ أن أحيا في النار إلى الأبد، إذن فلأدخلها الآن.

صرخت أمي وخالاتي وحتى عمتي أم العريس تقدمت مني وقالت بصوت حزين: "شبابكِ غالٍ علينا كلنا يا ابنتي، لا تنتحري، الزواج قسمة ونصيب وهذا الزواج غير مقسوم".

بعد كلام عمتي تقدم والدي مني وقبّل جبيني قائلاً: "لا تنتحري يا ابنتي، هذا الزواج لن يتم".

هدأت الضجة بعد كلام أبي وتفرق المجتمعون. أخذتني خالتي للمغسل الذي نتحمم فيه وأَحَمَّتْني من النفط الذي سكبته على رأسي وانتشر على سائر جسدي وملابسي. بعدها ذهبت لفراشي لكن النوم جفاني وحتى هذه اللحظة. في الصباح باكرًا غادرتنا عمتي وأولادها.

تنفست الصعداء بعدما تأكدت من رحيلهم وقلت في نفسي: "اذهبوا للجحيم. أتمنى ألا أراكم أبداً".

قلت لهزار مستغربة ومازحة: "هل تقولين الصدق أم أنك تنسجين حكاية من خيالك الخصب؟"

أجابت مؤكدة: "أقسم بحياة رشكو هذا ماحدث رغم أني اختصرت لك ولم أذكر كل التفاصيل".

قلت لها مكملة مزحتي: "وهل كنت ستنتحرين حرقًا فعلاً؟ هل نسيت نصائح معلمنا في المدرسة عن عدم الانتحار؛ لأنه غير مجدٍ ولن يحلّ لنا مشاكل نريد حلّها وقد يزيد الأمر سوءاً وندخل في مشاكل جديدة كما أننا سنخسر رضاء الله ونسكن النار الأبدية".

أجابتني: "لا يا بنت طبعًا لم أنسَ نصائحه ولكني اضطررت لتمثيل هذا الدور ليتراجع أبي عن إصراره".

قلت لها ضاحكة: "ثقي لو كنت هناك كنت سأقدّم لك علبة الكبريت وأقول: تفضليْ اضرمي النار في نفسك".

ردّت علي بنفس طريقتي: "سهلة جداً، كنت سأضرم النار فيك وأقول ياه لقد ارتبكت ولم أعرف ما أنا فاعلة".

فقلت لها: "إني أستغرب منك ياهزار، من أين أتتك تلك الجرأة وأنت المعروفة بالهدوء وقلة الكلام وحتى إن تكلمت فقلّما يسمع الآخرون صوتك، لكني بصراحة سعيدة جداً بما فعلته، ثم أكملتُ: ألا تلاحظين أن هؤلاء الكبار ينسبون انفعالاتنا وردود أفعالنا دائمًا للتعليم وللمدارس؟

الشيء الوحيد في ذهن الرجال عن المرأة هو أنها مجرد خادمة أو جارية تسعى لخدمتهم ليس إلاّ، وهم فقط يتمتعون بالحكمة والتفكير، إنهم غريبون حقًا. حسنًا فعلنا بذهابنا للمدارس والتعرف من خلالها على حقوقنا أو على البعض منها والأهم أننا علمنا أننا بشر. ألا تتفقين معي بالرأي؟".

قالت هزار: "بلى، صدقت".

ثم أكملت مازحة: "على فكرة ياهزار، لماذا لم تتزوجي من ابن عمتك فهو شاب جيد فعلاً؟".

قالت لي بهدوء: "اقتربي مني".

لم أتكهن وقتها بما كانت تنوي أن تفعله فاقتربت منها فإذا بها تمسكني من شعري وتشده بقوة حتى صرخت فقالت لي: "هل ارتحتِ الآن؟ أعطني عباءتي لأتلفع بها وأمضي من هنا".

رجوتها: "لا لا، لا تذهبي، لقد كنت أمزح وربي، أحببت أن أغضبك فقط".

أجابتني: "أعرف أنك تمزحين لكني سأذهب للسوق لألتقي بالمجنون موسى، فالأستاذ محق في اختياره للمجنون زوجًا لك فهو يناسبك تمامًا".

ضحكنا معًا وقلت لها: "أقسم إنك تمتلكين جرأة لا يمتلكها سواك، فلتبيضّ وجنتاك(٣) لقد أثلجت قلوب الكثيرات".

قبل أن تخرج سألتها: "متى سيكون عيد ميلادك؟".

قالت: "في يوم نوروز[٤]، سنحتفل به في منطقة بابير."

سألتها: "هل رشكو على دراية بذلك؟"

فقالت مفتعلة الغضب: "لا تقولي رشكو، نعم الأستاذ لا يعرف بعيد ميلاده لكنه يعرف متى يكون عيد ميلادي أنا!"

ودّعتني وغادرت بيتنا. في اليوم التالي سافرنا عائدتين إلى الموصل حيث المعهد الذي ندرس فيه وبيت الطالبات الذي نسكنه، ولأيام صارت هذه القصة محل سخريتي وإغاظتي البريئة لها، فبين حين وآخر أسألها بنوع من الخبث: "لمَ لا نذهب لزيارة عمتك وأولادها الليلة ها؟"

فكانت تجيبني غاضبة: "وعد مني إن ذهبت هناك فسأقول لها صديقتي هذه مستعدة للزواج من ابنك، لكن بصراحة يامسكينة فإن المجنون موسى أفضل منه، ها هل أخبر عمتي عنك؟"

قلت لها متظاهرة بالخوف: "لا لا، أشكرك، كيف أترك موساي هل جننتُ لأفعلها؟"

---

(١) عباءتها: العباءة: غطاء أسود طويل واسع بكمّين فضفاضين يوضع على الرأس ويغطي سائر الجسم، اعتادت النساء في العراق لبسه وانتشر خلال القرن الماضي بكثرة وهو مازال متبعًا في بعض المناطق.

(٢) تخرج المشاكل من تحت قدمي: يعني أن المشاكل تأتي من الأقرباء وبسهولة.

(٣) تبيض وجنتاك: أي يبيض وجهك وهي عبارة تستعمل عند الاعتداد بشيء فعله شخص وكان مدعاة للفخر.

(٤) نوروز: عيد قومي يحتفل به الأكراد في كل بقاع العالم ومعناه يوم جديد حيث انتصر الشعب الكردي على الحاكم الطاغية (الضحاك) الذي حكم المناطق الكردية قبل آلاف السنين وتم ذلك بقيادة كاوه الحداد.

عيد نوروز

الراوى: شيلان

على أعتاب نوروز هذا العيد الجليل تكدرت هزار مرة أخرى لعدم وصول رسائل من رشكو إليها، لكن رحمة السماء نزلت بيوم قبل عودتنا إلى زاخو فاستلمت رسالة منه وعادت الفرحة لقلبها المحب، وأدركت أن خطاباً منه قد وصل باسمي إلى زاخو فما إن وصلنا هناك حتى ذهبت لبيت عمتي مباشرة فاستقبلتني عمتي مرحِّبة بي وقالت: "تفضلي هذه الرسالة إليك من رشكو اقرئيها لنعرف ماذا يقول." بدأت أقرأ الرسالة همساً: تحياتي الحارة واحترامي لوالديَّ، ابنة عمتي شيلان لقد اقترب عيد ميلاد هزار، وأريد منك بالنقود التي أرسلتها إليك أن تشتري لها ما ترغب به بمناسبة عيد نوروز ولتكن هديتها قرآناً على شكل قلادة من ذهب لكن لا تخبريها بأنها هديتي حتى تلبسيها إياها في يوم نوروز واهمسي في أذنها بأنها بمثابة عهد يقطعه رشكو بالحب والوفاء إليك، وقد أرفقت مع هذه الرسالة رسالة مغلقة لتعطيها لهزار مع الهدية. صحيح أنني بعيد عنكما لكن روحي كالظل تتبعكما. سأقيم مأدبة لرجال القرية احتفالاً بعيد ميلادها وبنوروز وسأوقد الشموع .

رشكو

طمأنت عمتي على أن رشكو بخير ومشتاق لهم جداً وأنه سيزورهم في أقرب فرصة.

بعدها ذهبت لبيت هزار وقلت لها: "يقول الأستاذ إنه يريدنا أن نشتري هدية لكل منا من نقود أول مرتّب شهري يستلمه،" لم أذكر لها شيئًا عن القلادة والرسالة التي أرسلها لها.

فقالت: "فدته روحي إنه لم ينسني في أول راتب له" ذهبنا في صباح اليوم التالي للسوق واشترينا حاجيات بسيطة كنا نرغب في شرائها سابقًا، لكني عدت بعد الظهر للسوق وحدي واشتريت لها القلادة الذهبية. في صباح اليوم الذي يليه ارتدينا الزي الكردي وذهبنا كلنا برفقة عوائلنا لمتنزه بابير لنحتفل بمناسبة عيد نوروز. في المتنزه جلسنا معًا أنا وهزار.

قلت لها: "مجتمعنا لم يعتد إقامة أعياد الميلاد من قبل، فقد تكون هذه هي المرة الأولى التي تحتفل بها مجموعة بعيد ميلاد. كيف سنحتفل به في متنزه عام؟ سيعتبره الآخرون حدثًا غريبًا لأنه لم يسبق لشخص أن فعلها! قد ينتقدك بعضهم ياهزار."

فأجابتني: "بصراحة، أنا لا أرى أي خطأ في ذلك، يجب أن نعتاد على الاحتفال بعيد الميلاد وسنكون نحن أول من يفعلها خاصة لأننا نعتبر المثل الأعلى في المجتمع، فلنوقد الأضواء في ظلمة المجتمع الذي يحرّم ويعيب أموراً صغيرة كهذه. ما الضرر في أن أبدأ بذلك أنا،

سأحتفل بعيد ميلادي بإصرار ولا يهمني ماذا يقول الآخرون، ولعلمك فقد أعجبت صديقاتنا بهذه الخطوة وجئن ليحتفلن بعيد ميلادي معي".

قلت لها: "كما تحبين ولن أتركك أبداً".

اخترنا مساحة خالية من المتنزه الكبير ودعونا صديقاتنا الأخريات القادمات مع عوائلهن. جلسنا بشكل نصف دائري على أغطية خفيفة فرشناها لذلك وبدأنا نغني. كان اليوم مشمسًا ودافئًا قليلاً. أوقدنا اثنتين وعشرين شمعة في كعكة صغيرة صنعتها هزار بنفسها وبدأنا نصفق ونغني. أطفأنا الشموع مع هزار وبدأت كل منّا تخرج هديتها لتقدمها لهزار فأخرجت القلادة من علبتها وألبستها إياها وهمست في أذنها: "هذه هدية الأستاذ بمناسبة عيد ميلادك،" فشهقت بصوت عالٍ وضحكت ثم احتضنتني وقبّلت القرآن المتدلي من السلسلة في رقبتها، سألتها إحدى الفتيات: "لماذا شهقت هكذا وقبّلت القلادة؟" فقالت هزار: "إنه القرآن فكيف لا أقبّله؟" انتظرتُ بعض الوقت قبل أن تسنح لي فرصة تسليمها الخطاب من رشكو دون أن تراني الأخريات. قلت لها: "هذا الخطاب أيضًا منه بمناسبة عيد ميلادك،" اتخذتْ لنفسها زاوية لتقرأ الرسالة ثم عادت بسرعة والفرح ينطق في عينيها فأدركتُ أنه قد كتب لها ما تسرّ له نفسها. قالت: "شدّوا المنديل على خصري يابنات وغنوا وصفقوا لي، أريد أن أرقص." قلت لها: هل جننتِ ياهزار؟ سترقصين أمام أعين الناس؟ فقالت: "دعيني ياشيلان أكاد أطير من فرحتي".

صفقنا وغنينا لهزار وكنا مأخوذات برشاقة وجمال رقصها وحركاتها وهي تؤدي الدبكة الكردية في الوسط وشاركها بعض الفتيات وإذا بالناس يجتمعون حولنا في دقائق معدودة وبدأت بعض النسوة بالزغاريد، خشيت على هزار من الوقوع في مشاكل لا يحمد عقباها مع أهلها أو حبيبها، فقمت من مكاني وطلبت من الأخريات أن يقمن وقبّلنا جبين هزار وذهبت كلٌّ منا إلى حيث تجلس عائلتها. انفضَّ الذين حولنا، وبعد أن بقينا وحدنا سألتها: "ماذا كتب لك رشكو ليثير جنونك هكذا؟".

مدّت يدها وناولتني الخطاب المكتوب بعدة سطور فقط: أعدك بأن أحتفل بعيد ميلادك أنا أيضًا، ولو أني بعيد عنك بجسمي لكني قريب منك بروحي وأحيطك كالظلّ. أمنيتي أن ألبسك قلادة أخرى بنفسي في عيد ميلادك القادم، لا أملك في الدنيا إلاّ عينيك السوداوين الجميلتين وقد كتبت لهما هذه القصيدة مع قبلاتي لهما:

فى عيد ميلاد جانيه

أعانق ميلاد حبيبتي ... لك عيناي كلتاهما
إن لم يكفك قلبي هدية ... خذي عمري لأرضيك
أو أقدّم لك جسر دلال[1] ... يامحبوبتي الرائعة
سأهديه لك وحدك ... فيذهل الناس في هذه الدنيا
هدية لحبيبتي جانيه ... من صميم قلبي
أخبريني ماذا أهديك! ... وابقى أبدًا في قلبي
ماذا أهديك حبيبتي ... يا أغلى من عينيّ؟

رشكو

(١) جسـر دلال: جسـر قديم في زاخو تقول عنه الأسطورة إنه بُنيَ

على أكتاف فتاة صغيرة اسمها دلال، هذا الجسر كان ينهدم باستمرار

فوعظهم حكيم مرَّ مصادفة بالقريـة بأن يُبنى على أكتاف كائن حي كي

لا ينهار وقد شاعت المصادفة أن تكون دلال هي الضحية.

....

البرق

في يوم الخميس المصادف ١٢-٣-١٩٦٠ قررت أن أحتفل بعيد نوروز وعيد ميلاد جانيه معًا في القرية، فقلت لهادي: "سأقيم وليمة هنا غداً لذا أريد منك أن تشتري لي خروفًا من السوق، وتذبحه وتطبخه لنا وادعُ الخال حسو وباقي رجال القرية للغداء." في العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي نهضت من النوم سعيداً بمناسبتين عزيزتين على قلبي، وقبل أن أشرع بارتداء البنطال والقميص سمعت صراخًا وصياحًا قادمًا من جهة القرية. فُتح الباب عليّ عنوة ودخلت منه الخالة خَمي وهي تستنجد بي وتصرخ وتضرب على رأسها وتبكي.

قالت: "أستاذ، أتوسل إلى الله وإليك أن تنجدنا، إن حيتو سيقتل ابنتي خناف".

سقطتْ على قدميً مغشيًا عليها، خرجتُ من الباب فرأيت سكان القرية يتجهون بصفوف طويلة لوادي (كاف را)، دون تردد أو تفكير هرعت باتجاههم راكضًا في الثلج ، لحقت بهم ووصلت إلى حيث يقف حيتو فرأيته يتبختر ببندقية على كتفه ومرتديًا صفًا طويلاً من الرصاص وكأنه سيواجه عدواً كبيراً وحده. يتقدم الصفوف مع الملاَ عبَو، يتبعهم

الخال حسو وصوفي كاردي وإسماعيل مع آخرين، بينهم اثنان يمسكان بـ (خناف) من كتفيها ويجرجرانها معهما دون أن يعبأ بقدميها اللتين تنزفان دماً من الجروح التي سببها الحجر والثلج في الطريق وهي لا تقوى على السير. كانت الأم ممنوعة من السير مع خناف لأن حيتو منعها من ذلك وكلما حاولت التقرب كان يقذفها بالحجر أو بكرات من الثلج ويشتمها بأسوأ ما يمكن من السباب، وحينما لحقت بي هناك بدأت بالصراخ والعويل وشدّت شعرها.

قالت وهي تتوسل إلي: "يا أستاذ، أليست خناف إحدى طالباتك؟ إن حيتو يريد أن يقتلها لأنها رفضت الزواج منه وقد افترى عليها واتهمها في شرفها، أتوسل إليك يا أستاذ أن تنقذها. ألست ابن الدولة وتمثلها هنا؟".

رفعت خناف رأسها وعيناها مغرورقتان بالدموع وقالت: "أقسم يا أستاذ إنه يكذب ويفتري عليّ،" وهنا أغمي عليها.

بصراحة أحسست بأن الدنيا اسودّت في عيني، كنتُ أود لو أمسك بحيتو وأقتله حيث يقف، فقدت صوابي. وقفت أمامهم ورفعت كلتا يدي كإشارة ليصمت الجميع، وفعلاً صمتوا بانتظار ما سأقول، وصلت النسوة للمكان الذي كنا نقف فيه، كنّ يبكين ويولولن ويشتمن حيتو ويستنجدن بي لأنقذ الفتاة التي لم تبلغ الخامسة عشرة من العمر بعد.

قلت بصوت عالٍ: "ماهذا؟ ماذا تفعلون؟".

أجاب حيتو باستعلاء: "رجاء يا أستاذ لا تتدخل في مشاكلنا، نحن ملزمون بإنزال العقاب اللازم على المذنب ولا أحد يستطيع أن يثنينا عما اعتدنا عليه".

أجبته بحزم: "لم يخلق بعد من يستطيع أن يقتل أحد طلابي أو أن يجرح إصبعه حتى. لم يحدث ولن يحدث ذلك أبداً." صارت النسوة تزغرد وتعالت أصوات بعضهن بالدعاء لي، تقدمت إحداهن لتقول: "إنه يفتري عليها يا أستاذ، أقسم لك على ذلك، أنقذ روحها الله يحميك." لاحظت الفرحة المرتسمة على ملامح الخال حسو وباقي الرجال فأدركت أنهم ليسوا مع فكرة قتل الفتاة البريئة. قلت لحيتو: "دعني أعرف لماذا تريد أن تقتلها".

أجاب حيتو بثقة وهو يتأتئ وينفث البصاق كالرذاذ في وجهي: "لقد رأيت خناف البارحة مع شاب في وادي (كاف را) ترتكب الفاحشة، وحينما أخبرت ملا عبو بذلك أفتى بوجوب قتلها".

ما إن انتهى حيتو من كلامه حتى شددتُ ملا عبو من جلبابه فانقطع نفسه وقلت له: هل تتذكر الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور). إذا افترى أحدكم على امرأة ولم يتمكن من الإتيان بأربعة شهود فإن الحكم بثمانين جلدة يقع عليه، لذا فثمانون جلدة هي عقابكما أنتما الاثنان، ولم أتمالك نفسي من طرحه أرضاً بقوة حتى خلتُ أني قتلته. التفت للخال حسو وطلبت منه أن يرسل في طلب الملاّ حسن من قرية مارسيسي المجاورة فهو رجل دين حقاً ويخاف الله وسيكون رأيه معتدلاً.

قال عبو وهو ينفض الثلج عن نفسه ويتكلم بصعوبة: "أنا لم أقل إنها زانية، لقد قلت ما فعلته كان خطأً".

تنفس والد خناف الصعداء وقال لحيتو وعبو: "أقسم لو أني اكتشفت براءة ابنتي من التهمة التي وجهتموها لها بعد قتلكما لها لقطّعتكما إلى قطع بحجم آذانكما، أيها الكاذب، لقد قلت هذا عنها وأنا شاهد على قولك".

قال الخال حسو موجهًا كلامه لشقيق خناف: "اذهبْ ياولدي وأتِ بالملاّ حسن".

ركض أخو خناف باتجاه القرية المجاورة، علت الصفرة وجهي حيتو والملا عبو. تجمعت نساء القرية حولي وكن يتمتمن بالدعاء لي وكان ضحكهن وبكاؤهن ممتزجًا، حتى الرجال شعروا بالراحة والبهجة. كانت خناف تنظر إليّ بدهشة وإعجاب وعيناها مغرورقتان بالدموع والصدمة قد شلّت لسانها فأحسست بنار هائجة في قلبي وقلت لها: "لا تحزني ياخاتون وربي لم يُوجد بعد من يستطيع أن يجرح أصبعًا لأحد طلابي. ألست أنا ابن الحكومة؟ إذن فحمايتك من واجبي." دبّت في هذه المسكينة الحياة. صرختُ بوالدتها: "تعالي خذي ابنتك." تقدمت الأم وأخذت ابنتها من الرجلين اللذين كانا ممسكين بها. ارتمت الفتاة في حضن أمها وبدأت الأم تقبّل وتشمّ ابنتها والاثنتان تبكيان ومع بكائهما ودعوات النسوة الأخريات انتبهت للبرد الذي أصاب قدميَّ الحافيتين من الثلج حيث نسيت لانشغالي بالقضية أن ألبس حذائي، طلبت من هادي أن يأتيني به ففعل.

لفَّ الخال حسو سيجارة من تبغ فل وبعد أن أخذ نفسين عميقين منها قال لي: "عن نفسي وعن القرية بأكملها نشكرك من قلوبنا لكن هناك شيء آخر مهم جداً، من عمل إحساناً فليتمّه".

صمت الجميع بانتظار ما سيقوله الخال حسو باعتبارهِ حكيم القرية، فأكمل قائلاً: "سيأتي الملاّ حسن الآن لكني أحب أن أقول إنه تبين لنا ادّعاء هذين الدجّالَين حيتو وعبو وافتراءهما على تلك المسكينة وقد ثبت أنها لم ترتكب الخطيئة وأن هذه الأفعال ليست من صفات أبناء قريتنا وعوائلنا. لقد اعتدنا أن نرى بناتنا وأولادنا يذهبون لجني المحاصيل والجوز وحتى في المرعى فهم يتعاونون كالإخوة فيما بينهم. أتمنى لو تنكسر رقبة حيتو وعبو على ما اقترفاه بحق هذه المسكينة فهي لن تجرؤ على البقاء في هذه القرية بسبب ما مسٍّ سمعتها من سوء فقد قالا عنها كلاماً سيئاً كثيراً ولا تظن أن حيتو سيتركها وشأنها فهو سيظل وراءها حتى يتمكن من الزواج بها، لكن هناك حلّ واحدٌ لمعضلتها وهذا الحل بيدك أنت وتستطيع أن تنقذها من الموت حيّة، ولن يضيع الله لك هذا الأجر وإذا فعلتها وساعدتها فلن يجرؤ شخص على الاقتراب منها لا حيتو ولا أبوه (إشارة لمثيله) ولن نكون بحاجة لاستشارة الملا حسن أو غيره وأنت أستاذ تعرف قيمة الإنسان وكيف تتعامل معه ولا ترضى بالظلم".

أصابتني الدهشة لما يقول ولم يكن الحاضرون أقل دهشة مني، كنا بانتظار أن نسمع ما يقصده الخال حسو بكلامه هذا. نفث نفساً آخر

من سيجارته ثم قال: "إن خلاص هذه المسكينة من بلواها هو بزواجك منها، فحين تصبح زوجتك لن يستطيع أن يتعرض لها أحد ما بأذى وستكون أنت قد أكملت صنيعك".

بمجرد أن قال ذلك خيّل إلي أن السماء اكتست بالغيوم وكأن صاعقة ضربتني في رأسي فسرت في جسدي كله حتى وصلت أصابع قدمي وكمن لا حول له ولا قوة جمدت في مكاني غير قادر على الكلام. نظرت للنسوة الواقفات فإذا بإحداهن تقول: فدتك روحي يا أستاذ اقبل ولا ترفض هذا العرض، وأخرى تبكي وتقول: أنت منقذها من حيتو الشرير لا ترفض بالله عليك، وثالثة تقول: اقبلها حتى لو خادمة عندك فلن تحظى بزوج هذه المسكينة حتى الموت، اقبلها من أجل شبابها الذي سيضيع هدراً. نظرت إلى خناف فكانت عيناها مغرورقتين بالدموع واللهفة واضحة على ملامحها تنتظر ما سأرد به على الخال حسو. بدأت أنظر للجميع فإذا بهم كلهم يصبحون هزار، التفت في كل الاتجاهات فرأيتُ هزار تتقدم نحوي بثوب العرس الأبيض وفي يدها باقة من الورد وأعطتها لخناف وقالت لي ضاحكة: "قل موافق أرجوك." أغمضتُ عينيَّ بشدة ثم فتحتهما ونظرت للواقفين والواقفات اللواتي كنَّ يبتهلن إلى الله أن يجعل الرأفة في قلبي وأوافق على زواجي من خناف. حينما أشحت بنظري عنهم جانبًا ازدادت الدنيا سواداً في عيني ولم أعد أرى شيئًا وارتبكت جداً إلى الحد الذي فقدت فيه القدرة على القرار، لا أعرف ماذا جرى لي أو بماذا أردّ، آه ياهزار آه فدتك روحي وما أملك، أنتِ الآن في

انتظاري وقد هيأت فستان الزفاف وحتى الحنّاء قد اشتريته، يا ربي ماذا أفعل وكيف أعالج هذه المصيبة؟ ليتني متّ قبل أن يضعني القدر في هذا الموقف الصعب، وعادت هزار لتظهر لي مرة ثانية بثوب الزفاف مبتسمة وقائلة لي: أقسم لو حدث مكروه لهذه الفتاة فلن أقترن بك أبداً، يجب أن تنقذها من الموت.

كنت ألتفت يمينًا ويسارًا مذهولاً من وقع هذا الموقف عليّ. تراءى لي طيف أبَوَيَّ، وقال أبي: ماذا تنتظر؟ ها؟ ليكن في علمك بأنه لو حدث مكروه لهذه الفتاة فنحن براء منك ليوم الدين، وأكملت والدتي قائلة بغضب: حرام عليك الحليب الذي أرضعتك إياه، ولن أبرئ ذمتك ماحييت لو حدث مكروه لها. قلْ موافق وأنقذها من الهلاك يابني. اختفى طيفاهما. كانت عيون الرجال والنسوة محدّقة بي تنتظر ردّي، كل ماحصل في كفَة ودموع خناف وصراخ عينيها في كفَة أخرى. تمتمت: "إنها مشيئة الله وله فيها حكمة".

أقسم بعيون هزار وهي أعزُّ ما أملك لن ألمس هذه الفتاة ولن أعتبرها زوجة لي حتى تقرر هي أن تتركني. نزلت من عيني دمعتان مع آهتين وتمتمت: اغفري لي حبيبتي ويامليكتي هزار، لم يغرني جمالها ولا غناها ولا ولا ولا.... لكني مضطر أن أنقذ حياتها والله على ما أقول شهيد. قلت لهم أخيرًا: "أنا موافق لكن لا أقبل أن يعقد الملا عبو قراني عليها".

أجاب الخال حسو: "أدرك مدى صعوبة الموقف الذي أنت فيه لكن اتضح لي أنكم معشر المتعلمين والمثقفين أقوالكم وأفعالكم تتشابه.

صافحْ يد والد العروس[1] الآن ولتباركك السماء، أقسم إنك رضعت من حليب حلال[2]". صافحت يد والدها وقرأنا الفاتحة وبدأت النسوة يزغردن وقبّل الرجال والنساء جبيني وجبين خناف التي علا صوتها وهي تصلي لله من أجلي.

كنت كالثمل الذي فقد الشعور بالواقع، كنت أردد مع نفسي ربما أنا في حلم لكن زغاريد النسوة وصلاتهم لله من أجلي كان يعيدني للواقع.

آه..آه يامليكتي هزار، مئة آه وآه.

قلت للجميع: "كلكم مدعوون عندي على الغداء للاحتفال بنوروز، "وقلت لهادي: "غداً اشتر خروفًا آخر واطبخه على العشاء، سيكون الجميع ضيوفي".

قال الخال حسو: "اختر خروفًا من قطيعي ياهادي. ثم استطرد موجهًا كلامه للنساء: "اذهبن غداً لتساعدوه في الطبخ، دعونا نذهب للبيت فقد يكون الملا حسن في طريقه إلينا كي يعقد قرانكما." دخلنا كلنا إلى البيت الذي أسكن فيه فقلت لهم رجاء افرشوا السجاد في الغرفتين وابدؤوا بالطبخ. وصل الملا حسن بعد أن جلسنا فبادرني بالقول: "ما الخطب؟ كيف حصل أن تكونوا بين حالتين في وقت واحد الفرح والحزن".

بدأ الخال حسو يسرد له كل ما حصل بالضبط.

تغضنت جبهة الملاّ حسن وبدا الغضب عليه واضحًا فهمّ بالوقوف حاملاً عصاه وضرب بها الملا عبو وقال له: "وربي أنت تستحق ثمانين جلدة، ماذا تعرف أنت عن الحرام والحلال حتى تصدر فتاوى؟ قل لي".

طرد الملاّ حسن كلا من عبو وحيتو من بيتي، ثم عقد قراني على خناف. تناولنا العشاء الذي أعده لنا هادي بمساعدة نساء القرية وذهب كلٌّ إلى بيته، طلبت من والدة خناف أن تبقى في تلك الليلة عندنا في البيت وقلت لها: "ابقَي معنا هذه الليلة فابنتك قد أصابها الرعب اليوم وهي بحاجة لك لتنام في حضنك".

أجابتني: "على رأسي ياصهري".

---

(١) صافح يد والد العروس: يعني اقرأ الفاتحة معه وأنت تصافحه.

(٢) حليب حلال: أي إنك على خلق عالٍ وتربية صالحة.

العروسان

في الليل جاءت خُناف وأمها لغرفتي وفرشت الأم بجانب ابنتها لتناما. نظرت مليًا لخناف فإذا بها ترتجف في ذلك الثوب الخفيف الذي لا يقي من برد الشتاء القارس هنا، وكانت آثار الجرّ على الحجر والثلج قد تركت مكانها دماءً جافة على رجليها. سألتني خُناف بصوت مرتعش: "لن يقتلوني يا أستاذ، أليس كذلك؟" وأجهشت بالبكاء.

لم أتمالك نفسي حقيقة وانهمرت دموعي، تقدّمت ببطء نحوها، قبّلتُ جبينها ومررتُ بيدي بهدوء على شعرها لأطمئنها ثم قلت لها: "من ذا يجرؤ على قتلكِ؟ أنت الآن زوجتي، أقسم على أنه لا أحد يستطيع إراقة قطرة واحدة من إصبعك وأنا على قيد الحياة." نظرت لأمها قائلاً: "هناك ماء ساخن في الحمام، خذيها واغسلي لها وجهها وساقيها من الدماء المتجمدة عليهما لأداويهما." داويت جروحها بمرهم وربطت الجروح برباط طبي، لقد آلمتني حالتها كثيرًا كثيرًا وأشفقت عليها. ناديت هادي قائلاً: "سأسافر غداً مع صلاة الفجر إلى زاخو مع سمو وسأعود في نفس اليوم. احرس البيت ريثما أعود واطلب من شقيق خناف أن يأتي هنا أيضًا".

قالت خناف بخوف: "هل ستعود حقًا يا أستاذ؟".

-: "نعم ياحلوتي، أنت زوجتي الآن فهل يُعقل أن أتركك وأغادر؟".

أجابتني: "بل أنا خادمة عندك يا أستاذ." وكررتْ والدتها القول نفسه.

قلت: "لا لا لا أقبل بهذا الكلام، أنت زوجتي ياخناف".

كنت أعرف أنها خائفة جداً ولا ألومها على ذلك لذا أعطيتها قرصًا مهدئًا فنامت ملء جفنيها بجانب أمها، إلاّ أنني بقيت سهران، فكيف يغمض لي جفن؟ يالحزني عليك وعلى قلبك ياهزار، آه، آه، لقد كنا نفكر بمستقبلنا ووضعنا خططًا له، ولم نكن نعلم ما يخبئه القدر فكل شيء بأمره وحده. بقيت ساهراً مع همومي أشرب الشاي دون توقف، ولم أطفئ المدفأة كي تظلّ الغرفة دافئة. في الرابعة فجراً أتاني سمو كي يأخذني إلى شرانش على الفرس، أيقظت أم خناف من النوم وأوصيتها بخناف خيراً وأخبرتها أن تعدّا الطعام وتأكلا حتى أعود في هذه الليلة.

غادرنا القرية والصدمة مما جرى لاتزال في نفسي وكانت همومي وأوجاعي بعلوّ جبل بل أعلى وأكبر وأكثر ثقلاً كما أني لم أنم ليلتي ورغم ذلك لم أدرك أنني مرهق. وصلنا منطقة شرانش في الثامنة صباحًا، ووجدت هناك حمداً لله سيارة تقلّني لزاخو. استقللت السيارة وقلت لسمو: سأنتظرك في زاخو.

بعـد وصـولي إلى زاخـو ذهبت للبـيت وجدت أمـي، قـبلّتني وفـرحت برؤيتي كثيراً لكني أخبرتها بأني على عجلة من أمري وستكون لي زيارة أخرى عن قريب وقد أتيت في مـهمة قصيرة وسأعود للقرية فوراً وطلبت منها أن تخبـر أبي بأني أقبّل يدهُ وأرجو أن ينسـى أمـر زواجي من ابنة عمي تماماً. ذهبت لمركز المدينة ولأول مـرة استلمت بريد المدرسة بنفسي، قلّبت الرسـائل فوجدت خطاب حبيبتي جانبه بينها فـتجدد الحزن في قلبي، لم أفتح رسالتها بل تركت ذلك لحين عودتي للقرية لأقرأها بتأنٍ، بعدها ذهبت للسـوق واشتريت فستانـين شتويين على قياس خناف مع منديلين جميلين للرأس وحذاءين شتويين من المطاط الملوّن وقطع قماش لخياطة طقم من الزي الكردي لوالدة خناف كذلك اشتريت حلوى وقنينة عصـير وتمراً طازجاً وتمراً مـجففاً وأشـيـاء أخـرى حتى وصل سمـو فأعطيته ما اشتريته من السوق وعدنا معاً لشرانش حوالي الثالثة عصراً ووصلنا إلى القرية بعد أذان صلاة العشاء.

كادت خناف أن تطير فـرحـاً حينمـا رأتني. أدخلنا المشـتـريات إلى البـيت وقـدّمت الهـدايا لخنـاف ووالدتهـا. قـالت خناف منبـهـرة بهـداياي: "أهذه كلها لي؟".

أجبتها بعطف: "نعم ياحلوتي، وسأشتري لك المزيد كلما سـافرت إلى زاخو".

فـرحت بالحـذاءين المطاطين كثـيـراً فلبـست أحـد الزوجين وخـرجت تركض في الثلج ولمّا عادت قـالت لأمـهـا بدهشـة بالغة: "أمـي انظري، لم تتبلل قدماي ولم أحس بالبرد".

وضعتِ الحذاءين على مقربة من فراشها ونامتْ. بدأتُ بقراءة رسالة حبيبتي جانيه وأنا أحتسي الشاي، بعد تحياتها وسلامها إليّ بدأت تصف لي ما حدث في عيد نوروز وعن رقصها ودبكتها في ذلك المتنزه وشكرتني كثيراً لإرسالي الهدية لها وقالت: أقبّل القلادة القرآن وأقرأ الشعر الذي أرسلته إليّ كل يوم حينما أنهض من النوم. ثم تكمل: قل لي بالله عليك ماذا فعلت إلى الآن هناك، كلّي لهفة لأعرف ذلك.

فرحت جداً برسالتها وبعد أن انتهيت من قراءتها بدأت أكتب الجواب بدموعي وأتمتم مع نفسي: ماذا أقول وبأي رماد أغطي رأسي[1] ياحبيبة قلبي، كيف لي أن أرفع عيني في عينك بعد الخطأ الفظيع الذي ارتكبته بحقك وكيف سأدافع عن نفسي؟ لا أعرف، لا أعرف والله ياجانيه.

بقيت في شرودي هذا وأصبت بأرق لم يتركني حتى بزوغ الفجر؛ غفوت قليلاً لكن الكوابيس كانت تطاردني. في الحقيقة شعرت بأن الحياة أظلمت في عيني ولم أعد قادراً على التركيز من شدة التفكير، كيف سأقابل هزار؟ وماذا سأقول لها؟ في كل ليلة بعد صلاة العشاء أظلّ ساهراً أقلّب المشكلة في رأسي حتى صلاة الفجر دون جدوى ودون أن أتمكن من اتخاذ قرار معين، حتى الطعام لم أعد أشتهيه وأحسست بأنني بدأت أهزل.

كانت خناف تتألم لأجلي لأنني أُجبرتُ على الزواج منها وتعتقد بأني حزين لأنها قروية فقيرة، رغم أني كنت أهتم بها وأحترمها. كانت خناف لا تفارقني وتنتظر مني أي أمر أو طلب لتنفذه على الفور. ذات يوم

تجرأتْ وجعلت أصابعها تتخلل شعري وبهدوء بدأت تفرك فروة رأسي وقالت: "فديتكَ، إن كنت حزيناً لأني لست بمستواك فلا تحزن بسبب ذلك وطلّقني أو دعني أعش كخادمة في ظلّك فأنا أدرك جيداً أني لا أليق بك".

أجبتها بهدوء: "ماذا تقولين ياخناف؟ كيف لا تليقين بي وأنت من ملّتي؟ لا ترددي هذا القول ثانية كي لا أغضب منكِ.أنا لا أبالي بهذه الأمور إطلاقًا بل أنا حزين من أجلك وليس بسببك ولاتكرري علي بعد الآن أنك خادمة عندي، أنت زوجتي ونصيبي وأنا راضٍ عن نصيبي، لكنني حزين بسبب هذه الحياة وما يجري فيها، كيف تذهب روح صبية في عمر الورود هباءً وبسهولة بسبب تهمة أو كذبة وبدون تحقيق أو استفسار؟ وربي إن هذا لخطيئة عظمى وخطأ فادح والأدهى من هذا أن حقوق المرأة ضائعة تمامًا. عندي مشكلة خاصة ولا تظني أن لك علاقة بها، اعلمي جيداً أنك زوجتي ولا تكرري قولك عن كونك خادمة لي وإلاّ كما قلت لك فسأغضب منك".

قبّلتْ رأسي وقالت: "فهمتُ الآن، يعني لست أنا السبب في حزنك هذا".

قلت لها: "لا لا لقد قلت لك لستِ أنت إطلاقًا".

فرحت خناف بما قلته لها وكانت لا تتوقف عن خدمتي حينما أكون مستيقظاً، تصنع لي الشاي أو القهوة. حاولت كثيراً أن أجعلها تذهب

لفراشها لكنها كانت ترفض وتفضل الجلوس بقربي وقالت: "اعذرني يا أستاذ لكني سأبقى جالسة إلى جانبك مادمت مستيقظًا فإذا نمتَ سأخلد للنوم أنا أيضًا".

في الحقيقة خناف كانت صديقة جيدة، كانت عاقلة وعلى خلق كبير وتتصرف وتتكلم بثقة وكأنها فتاة جامعية. في الصباح كانت تستيقظ، توقد المدفأة وتسخن الماء وتجهز الفطور ثم توقظني في السابعة والنصف صباحًا وترافقني إلى المغسل حاملة إبريق الماء الحار والصابون ومنشفة للوجه ثم تصب علي يديّ الماء وكانت تجلس بجانبي منتظرة أن تلبي لي طلباتي ولو بإشارة مني. كانت تهتم بي في وجبات الطعام الثلاث وتتركني أتناول طعامي وحدي لكني رجوتها أن تجلس لتأكل معي، فأجابتني: "أين أنا منك يا أستاذ؟ وربي لا أستطيع أن أفعل ذلك، هذا كثير عليّ".

قلت لها بإصرار: "وأنا لن أتناول الطعام مالم تأكلي معي،" جلست مرغمة والحياء بادٍ على ملامحها. كنت أردد على مسامعها باستمرار: "أنت زوجتي وعليك أن تتناولي الطعام معي." أصبحت مسألة تناول خناف الطعام معي إحدى العجائب في القرية. ماهذه المبالغة في احترام الرجل؟ وكيف يقبل الرجل هذا على نفسهِ؟ أيأكل الطعام مع امرأة؟

بعد الفطور كنا نذهب معًا للمدرسة وفي العصر كنا نذهب في زيارة لأحد بيوت القرويين، وكلما مررنا بإحدى نساء القرية كانت تمطرني بالدعاء والابتهال إلى الله أن يحفظني وكثيرًا ما كنّ ينثرن الزبيب على

رأسي احتفاء بي. لم يتوان سكان القرية عن إبداء احترامهم وحبهم لي إلاّ أنني كنت تعيساً لا فرق عندي بين الصباح والمساء فالظلمة كانت في روحي ولم أجرؤ حتى على إرسال خطابات إلى زاخو لأطمئنهم عني، فأنا لا أعرف ماذا أكتب لهم أو كيف أبرر لهم فعلتي؟ عزائي الوحيد كان في إحساسي بأني عثرت على صديق وفيٍّ وبجانبي.

كنت أقضي اليوم كله في التفكير حتى ظننت أن دماغي ستنفجر، وقررت أن أرسل رسالتين في نهاية شهر نيسان واحدة لهزار والأخرى لشيلان وسأشرح لهما تفاصيل ماحدث معي وسأنتظر جوابهما وقرارهما. نعم هو هذا ما يجب أن أفعله ولا سبيل آخر لي فكل الطرق الأخرى مسدودة. بهذا الشكل قضيت أيامي محملاً بالهموم والألم. أحيانًا كنت أتمنى الموت لأتخلص من الشعور المؤلم في داخلي وتعذيب الضمير بسبب هزار. كنت أسأل نفسي أحيانًا: يا ترى هل علمت هزار بزواجي؟ لو كانت تعلم فإنها وربي معضلة! المفروض أن أكون قد أرسلت لها رسالة منذ الساعة الأولى للمشكلة لأشرح لها فيها كل شيء لكن لقد فات الأوان الآن ولا مجال للندم.

في التاسع عشر من نيسان وصل البريد إليّ، وجدت خطاب هزار بين الرسائل فترددت في فتحه وقراءته لشعوري بفداحة ما اقترفته من ذنب بحقها. وضعت الخطاب جانبًا إلاّ أنني كنت متلهفًا لأقرأ ماكتبته لي ولأعرف إن كانت على علم بزواجي أم لا؟ ترددت كثيرًا قبل أن أهمَّ بفتح

خطابها لكني فتحته لأعرف على الأقل كيف أردُّ على ما كتبته لي. أخيراً فتحت الخطاب وقرأت ما كتبته لي من كلمات في المقدمة لا تُقال إلاّ حين الموت والمصائب الكبيرة.أصابني الخوف وبدأت أقرأ:

يانور عيني وعزيز قلبي، الإنسان يتمنى شيئًا لكن القدر يكتب له شيئًا آخر قد يكون لصالحنا والحياة مستمرة بالخير والشر لكن الثواب عند الله على ما نفعله من خير وصبر على المصائب. لا تحزن ياحبيبي، لقد شاء الله لنا أمراً ولا قدرة لنا على رفضه. بعد عيد ميلادي ذهبنا للموصل أنا وشيلان من أجل الدراسة في المعهد. أصبت بمرض شديد اضطرني لمراجعة الأطباء هناك وبعد أن فحصني الطبيب ورأى فحوص الدم والفحوصات الأخرى التي أجريتها طبقًا لطلبهِ أحالني إلى لجنة أطباء دققوا في الفحوصات مرة أخرى وظلّوا يتمتمون فيما بينهم، تقدّم مني أحدهم قائلاً: "اسمعيني يا ابنتي جيداً، قلبك متعب جداً، أنت بحاجة لإجراء عملية معقدة وحتى بعد إجراء العملية ونجاحها بإذن الله فلا يجوز لك أن تتزوجي لأن في زواجك خطورة كبيرة على حياتك وقد تنتهي حياتك بعد فترة قصيرة من الزواج قد لا تتجاوز أسابيع. فحذار، حذار يا ابنتي وليكن الله في عونك.

وقعت كلماته عليَّ كالصاعقة فإذا بي أسقط مغشيًا علي فأبقوني في المستشفى لمدة يومين للعناية بي وكانت شيلان معي، لذا سأختصر عليك ما أريد قوله، أنت حبيبي وستبقى كذلك للأبد وأنت في حلٍّ من عهدك بالزواج مني، وأقول لك الآن ألف مبارك مقدمًا إذا تزوجت ياحبيب قلبي.

حالما قرأت هذه الكلمات صدرت مني صرخة جاءت خناف ووالدتها على أثرها من الغرفة الأخرى مهرولتين لكني غطيتُ عينيً بكفيَّ وبكيت كالأطفال. لم تجرؤ كلتاهما على سؤالي والاستفسار عن السبب لكنهم أدركوا أن مصيبة ما قد حلت بي. قضيت ليلتي أبكي حتى شعرت أن دموعي قد جفّتْ وغفوت وأنا في مكاني. صحوت من النوم على لمسات خناف وهي تمسّد شعري وقالت: "ماذا حدث فديتك؟".

أجبتها: "حدثت مصيبة".

قالت لي: "أدعو الله أن يخفف الله عليك وطأتها".

قلت لها: "اذهبي اليوم للمدرسة مع هادي واشغلي الطلاب بالقراءة هذين اليومين فلا قدرة لي على الدوام." كنت أقرأ الرسالة باستمرار وأبكي. امتنعت عن الطعام والشراب لأيام حتى خلت أن الموت قريب مني فرحّبتُ به، لكني بدأت أفكر فيما قالته هزار وتمتمت مع نفسي هذه مشيئة الله ولا راد لمشيئته فنحن والحمد لله لم يَخُنْ أحدنا الآخر وسواء شئنا أم أبينا فهذا ما أراده الله لنا وقد يكون في صالحنا هذا الأمر. استغفرت الله وبقلب مكسور بدأت أذهب للمدرسة واعتدت حياتي الجديدة.

(١) رماد يغطي الرأس: كناية عن الحزن بسبب المصيبة التي ألمّت بالشخص.

الآهات

بعد أسبوع من ذلك كتبت رسالة لها قلت لها باختصار: ليتني متُّ أو أصابني خنجر في قلبي قبل أن أسمع بهذا الخبر المؤلم. الموت أهون عندي من هذه المصيبة فهو يأتي مرة واحدة ونرتاح بعدها لكن هذا مكتوب على جبيننا. أود أن أخبرك بأن مصيبة قد حدثت لي أيضاً وقد كتبت تفاصيلها لك دقيقة بدقيقة بأمانة تامة وأرسلتها لكِ. هذه قصتي مع خناف وسأنتظر منك رأيك فيما حصل واعلمي أني قد أقسمت بعينيك ألا ألمس هذه المرأة وسأنتظر ما تأمرين به لأنفذه ياحبيبة القلب. فديتك هزار ليتني أصبت بالعمى أو العوق ولم تصابي بهذا المرض لكن ماذا أفعل؟ آه، وآه.

رشكو

كتبت رسالة لشيلان وأرسلت الرسالتين وبقيت أنتظر الجواب فطالت بي أيام الانتظار فلم أهنأ بحياتي بسبب الحزن والألم من أجلها. في الحقيقة كانت خناف تخفف عني الكثير من همومي وبعد أسبوعبن وصلني ردّها وهي تقول فيه: ياحبيب قلبي، ما فعلته لهو الصواب بعينه واعلم أني حتى لو لم أصب بهذا المرض لرفضت الزواج منك لو لم تفعل

ما فعلته. فليبيضّ وجهك وحلال هو الحليب الذي رضعته وقد أثبتَّ أنك من عائلة كريمة وجزاؤك عند الله كبير، أكرر تهنئتي إليك وأتمنى لو أراها قريباً. لا يهم إن كانت جميلة أو قبيحة، لكن المهم أنك أنقذت صبية في عمر الورود من موت محقق. أريد أن أراكما في أقرب فرصة وأبتهل إلى الله أن يسعدكما.

هزار

رغم كلماتها الجميلة فإن الحزن لم يبارحني، وتبدلت سجيّتي من إنسان مرح لا تفارق الابتسامة وجهه إلى شخص حزين غادر شفتيه الضحك. في الصيف عند ابتداء عطلة الصيف قلت لخناف: أنا ذاهب إلى زاخو لعدة أيام لكني سأعود لأصحبك معي بعدها.

وصلت إلى البيت وكانت شيلان موجودة في بيتنا، ألقيت عليهم التحية فلم يعرفوني. فقالت أمي لشيلان: أليس هذا ابني رشكو؟".

قالت شيلان مندهشة: "بلى ياعمتي هو؟".

وما إن وقعت عيناي على شيلان حتى بدأت أبكي وبكت هي الأخرى وعلا نحيبنا.

لم تعرف أمي سبب بكائنا لكنها بكت معنا وبعد أن هدأنا قليلاً وشعرت بالراحة قالت أمي: "ما الخطب قلْ لي يابني؟ ماذا حصل لك؟ والله لم أعرفك، لمَ أصبح جسمك نحيلاً هكذا وعيناك غائرتين، ماذا حدث؟ قل لي".

أجبتها: "أمي، كنت مريضاً".

-: "لماذا لم تأتِ لتراجع الأطباء هنا؟".

-: "أمي، إن مرضي لا علاج له، كما أنني بأفضل حالٍ من قبل".

نظرت إليّ أمي لبرهة ثم بكت مرة أخرى. وصل أبي إلى البيت في الليل ولم يعرفني هو أيضًا وظلّ ينظر إلي مندهشًا، وسأل أمي: "أليس هذا ابني رشكو؟".

أجابته والدتي بصوت باكٍ: "بلى، إنه هو".

-: "ماذا حدث لك يابني؟".

قبّلت يده وقلت له: "لقد كنت مريضًا جداً".

بعد العشاء بقينا وحدنا أنا وهو ووالدتي فقال أبي: أحسنت عملاً يابني لقد احترمتني كثيراً. مرة أخرى انهمرت الدموع من عيني. خشي أبي عليّ فتقدّم مني مقبّلاً رأسي ومسّد على شعري وكرر تقبيل رأسي وقال: "لا تبكِ يا بني لا عليك".

لم يكن يعلم السبب الحقيقي لبكائي وبعد أن هدأتُ قليلاً قلت لهما: "لقد حدثت لي مشكلة في القرية".

أجابني كلاهما معًا: "خيراً يابني ماذا حدث؟".

شرحت لهم قصة خناف بالتفصيل وبأمانة وقبل أن أكمل كلامي رفع أبي عصاه في وجهي قائلاً: "قل لي هل تزوجتها أم لا؟".

قلت له: "حينما رأيت دموعها أحسست بأن النار تحرق قلبي".

قال بنفاذ صبر: أجبني على سؤالي، هل تزوجتها أم تركتهم يقتلونها؟

-: "لا يا أبتِ تزوجتها".

-: "شكراً لله لأنك ابني، دعني أقبّل رأسك، حلال الحليب الذي رضعته وتقدّم مني وقبّل رأسي".

قالت أمي: "لقد ظننتك تبكي لأنك لم تنقذها وقتلوها أمامك! ثق لو لم تنقذها كنتُ سأحسب الحليب الذي رضعته مني حراماً ولم أكن سأبرئ ذمتك ماحييت".

وتقدّمت مني أمي لتقبّل رأسي وتقول: "لقد أصبحت عمة ولي كنّة،" وهللت بصورة لا إرادية. قال أبي: "لن أسألك إن كانت جميلة أو لا فمادمت قد أنقذتها من الموت فنحن سعيدون بها كيفما تكون".

قال أبي مازحاً مع أمي: "قومي ياعمةَ وأعدّي لنا شيئاً لنشربه".

ردّت هي مازحة معه: "ماذا تريد ياعم، قهوة أم شاياً، لا، سأعدُّ كليهما؟".

قال أبي: "اذهب صباحاً للقرية وأتِ بها لنكحل أعيننا بمرآها ونحتفل بكم في حفل زفاف كبير".

قلتُ: "لا يا أبي لن أقيم إلاّ مأدبة عشاء فقط وليقرأ الإمام القرآن فيها".

استغرب أبي وقال: "لكنك تجيد الدبكة وقد ظننتك ستطلب طبلين ومزمارين(*)".

-: "لا يا أبت أريد مأدبة عشاء لا غير. غداً سأتفق مع سائق اللاندروفر لينتظرنا في شرانش وسنأتي في اليوم الذي بعده".

لم يطاوعني قلبي لأرى هزار. في اليوم التالي أيقظتني أمي من النوم قائلة: "اذهب واحضر كنّتي لأكحل عيني برؤيتها قبل أن أموت".

وصلت للقرية في الساعة الأخيرة من عصر ذلك اليوم. فرحت خناف جداً برؤيتي وقالت: "صدقني لم يغمض لي جفن".

قلت لها: "غيّري ثوبك لنذهب ونودّع أهلك وأقاربك وباقي أهل القرية لأننا سنغادر في الصباح الباكر إلى زاخو والسيارة في انتظارنا في شرانش".

خلتها ستطير فرحًا ثم قالت بصوت منخفض: "أتعرف أني لم أركب السيارة في حياتي!".

ذهبنا للقرية وودعنا القرويين والدموع تنهمر من عيون أمها وخالاتها وعمّاتها وهم يبتهلون إلى الله أن يحمينا ويوفقنا في زواجنا. في الصباح الباكر جاء أخوها وهادي يجرّان فرسين معهما وبعد أن وصلنا لقرية شرانش ركبنا سيارة اللاندروفر التي تنتظرنا هناك ووصلنا إلى زاخو مع موعد طعام الغداء. طلبتُ من السائق أن يوصلنا للبيت وفي الطريق مررنا بالسوق فقالت خناف: "كم زاخو كبيرة وجميلة يا أستاذ".

فكرت مع نفسي: ياترى ماذا ستفعل حين ترى بيت والدي؟

حالما دخلنا البيت بدأت أمي بالزغاريد. انحنت خناف على يد والدتي وقبّلتها ثم وضعتها على رأسها إشارة لاحترام الكبير كعادتهم في القرية. ما إن دخل والدي الغرفة حتى انحنت خناف على يده وقبّلتها ثم وضعتها على رأسها أيضًا واتخذت لها مكانًا للجلوس. عند الغداء بقيتُ أنا مع أبي نتناول الغداء وحدنا، وقد جلست خناف مع أمي وحدهما حسب ما أرادت خناف، وأنا قبلت ذلك كي لا أحرجها. أقبل أقرباؤنا، عمّاتي وخالاتي وأعمامي وامتلأ البيت بهم وقد فوجئت بأن الجميع فرحوا بها حتى عمّي الذي أراد أن أتزوج ابنته. قال والدي لأمي وعمتي الكبيرة: اذهبا للسوق غدًا وخذوا كنّتي معكما واشتروا لها ما شاءت من الملابس والمصوغات الذهبية.

فرحت خناف بما سمعته جدًا وفي الليل بقينا وحدنا أنا وهي وقررتُ حينذاك فقط أن أتلو عليها قصة حبي لهزار وعرفت عندها سبب بكائي حينما وصلتني رسالتها. بان عليها الحزن وقالت: "ليتني ثم ليتني قد قُتلت ولم أسمع بفراقكما لكن ما باليد حيلة".

قلت لها: "أنت لم تتسببي في أي مشكلة لنا بل إنها مشيئة الله تعالى، سنذهب غدًا إلى بيت خالي وستكون هزار هناك لتراك حسب ما طلبت هي".

في صباح اليوم التالي ذهبنا إلى بيت خالي والتقينا هزار ودموعنا تسبقنا، بكينا حتى ظننا أن عيوننا جفّت، وتقدّمت هزار واضعة إحدى

يديها على رأسي والأخرى على رأس خناف وظلّت تدعو لنا بالتوفيق في حياتنا. وضعنا نحن الثلاثة أيدينا كل على كتف الآخر بصورة تلقائية وتنهد كلّ منا ثلاث تنهيدات.

بعدها دخلت شيلان ابنة خالي وسمعت تنهداتنا الحارّة فسألتنا عن سببها وقالت: صارحوني بالله عليكم.

قلت لها: "آهتي الأولى لأني لم أحقق أمنيتي بالارتباط بالحبيبة هزار بعد قصة الحب الجميلة والصادقة التي عشتها معها، والآه الثانية: بسبب المرض اللعين الذي أصاب هزار وهي في عمر الورود، أما الآه الثالثة فهي من أجل خناف وكل النساء اللاتي لا يمتلكن من حياتهن أي حق فقد يُقتلن بسهولة بسبب كذبة أو قد ينتحرن ليتخلصن من حالة يُجبرن عليها دون أن يبالي بهن أحد.

وقالت هزار: آهتي الأولى كانت لأن أمنيتي بالارتباط بحبيبي لم تتحقق، والثانية بسبب المرض الذي أصبت به، والثالثة بسبب النساء اللاتي تذهب أرواحهن أدراج الرياح بسبب الجهل والتخلف، وكما قال أستاذي دون أن يبالي بهن أحد.

أما خناف فقد قالت: الآه الأولى: يعلم الله كم أنا حزينة لأجلكما لأن أمنيتكما لم تتحقق بارتباطكما حتى إنني أتمنى لو متُّ لو كان في ذلك خير لكما، والثانية: بسبب هزار والمرض الذي ألمَّ بها، ليتني كنت أنا المصابة بهذا المرض وليست هي، أما الثالثة فبسبب الكثير من النساء

والفتيات اللاتي تم قتلهن بسبب كذبة أو افتراء أو تم ذبحهن كالدجاج على مرأى من الجميع دون أن يطرف لهم جفن، فألف آه لذلك.

وبعد أن أتممتُ كتابة هذه القصة تنهدت ثلاث تنهيدات أنا أيضًا: فالتنهيدة الأولى من أجل كردستان التي لم نحمها بين البلاد فقسموها إلى أربعة أقسام، والآه الثانية من أجل هزار وخناف وكل النساء اللاتي وقع عليهن الظلم فقُتلن وسجّل الحادث ضد مجهول أو انتحرن دون أن يؤنب الجاني ضميرهُ فبأي وجه سيواجه الله يوم الحساب؟ أما الآه الثالثة فستبقى سراً في داخلي لا أريد أن يطّلع عليه أحد.

الكاتب.

---

* طبلان ومزماران: مراسيم العرس التقليدي في القرن الماضي كانت بالعزف على المزمار وإيقاع الطبل الذي يؤدي المحتفلون على نغماتهما رقصات جماعية تسمى الدبكة وإذا كان الحفل كبيراً والمدعوون كثيرون فيفضل وجود طبلين ومزمارين للتناوب، ولازالت بعض المناطق والعائلات تتبع هذه العادة في حفلات الزفاف في كردستان.

انتهت...................................

توضيح

ستترجم هذه القصة إلى اللاتينية في أوربا وسيتم طبعها ونشرها بالتعاون مع اتحاد الأدباء الكرد هناك.

إلى كل من يريد الاتصال بالكاتب مباشرة، هذا هو عنوانه البريدي:

Saied955@gmail.com

Saied955@hotmail.com

المؤلف فى سطور:

سعيد حجي

صديق زاخويي

من مواليد مدينة زاخو وينتمي لعائلة رزفان وهي من إحدى العوائل العريقة التي قطنت هذه المدينة منذ مئات السنين. معنى اسم رزفان في الكردية/البهدينية هو الشخص الذي يملك البساتين، أي أن اللقب جاء لربما بسبب ذلك كما هي العادة المتبعة في تسمية العوائل آنذاك.

عاش المؤلف سعيد صديق رزفان في مدينة زاخو الكردية والتي تقع في أقصى الشمال من العراق أي كوردستان - العراق ضمن المثلث الحدودي الذي يفصل العراق عن سوريا وتركيا. يتحدث سكان هذه المدينة الجبلية اللغة الكردية وتحديداً اللهجة البهدينية.

يتصف سعيد رزفان بالهدوء والتفاؤل والجدية في العمل ربما بسبب ماتعوّد عليه من خلال مهنته التعليمية التي قضى فيها ٢٨ عاماً، كان في العشرة الأخيرة منها مديراً لإحدى المدارس الابتدائية في زاخو. أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في زاخو وحصل على دبلوم تعليم من الدورة التربوية في مدينة الموصل ثم عمل معلماً في قرى زاخو خلال السنين الأولى من استلامه للعمل. بعد إحالته إلى التقاعد بدأ بكتابة الروايات بالكردية والعربية، وكتب الشعر بالكردية ودأب على البحث وجمع المعلومات عن زاخو ضمن مشروعه في كتابة تاريخ التراث الكردي لمدينتي زاخو ودهوك. عمل ناشطاً في المجتمع المدني فقد أسس مع بعض الأصدقاء منظمة فراشين لحماية البيئة في زاخو عام ٢٠٠٥ ونُصبَ مديراً لها.

حرر في العديد من المجلات والجرائد الورقية التي تصدر في العراق وقدّم أكثر من مئتي حلقة إذاعية عن تاريخ زاخو في قناتي زاخو وهيزل الإذاعيتين.

له مؤلفات باللغتين الكردية والعربية.

المؤلفات بالكردية:

- رواية ميري ميران، تُرجمت إلى العربية.
- رواية بَري خان، تُرجمت إلى العربية وأعيدت كتابتها بالحروف اللاتينية الكردية.
- رواية ئاخينك تُرجمت إلى العربية.
- رواية خيفزانك.
- رواية خه ون، تُرجمت إلى العربية.
- كتاب تاريخي روناهيه ك لسه ر كه له بور وئه فسانا لزاخو تُرجم للعربية.
- ديوان شعر بعنوان: ميركا كولا.

المؤلفات بالعربية:

- رواية المحاكمة العادلة.
- رواية الغجرية العاشقة.

- رواية الحلم.

- كتاب تاريخي بعنوان زاخو الماضي والحاضر.

- زاخو تاريخ وصور.

- كتاب تاريخي عن زاخو بعنوان لمحات من التراث والأساطير في زاخو من عام ١٩٠٠-١٩٦١

المترجمة في سطور:

سوزان سامى جميل

- من مواليد العراق. عاشت طفولتها وصباها فى بغداد والموصل وتقطن كندا حالياً.

- تحمل شهادة البكالوريوس فى الهندسة الزراعية من جامعة الموصل - العراق.

- تعمل مدرّسة للفيزياء والكيمياء والرياضيات فى زاخو - كردستان من عام ١٩٩١ ولغاية ١٩٩٨ - حاصلة على شهادة دبلوم علوم لغة إنكليزية ورياضيات وحاسوب من موهاك كوليج فى هاملتون - كندا عام ٢٠٠٨ - عملت مترجمة للغات العربية والكردية والإنكليزية فى منظمة سيسو لاستقبال القادمين الجدد إلى كندا - مدينة هاملتون - وتعمل الآن مترجمة لحسابها الخاص- وكذلك مع شركة آى تى إس للترجمة فى هاملتون - كندا - كما تعمل محررة فى مجلة المدار وجريدة أكد اللتين تصدران فى كندا .

- كاتبة شعر وقصص ومقالات فى الكثير من المواقع الإلكترونية والصحف والمجلات الورقية.

- أصدرت مجموعة شعرية بعنوان (دوامات من العسل الماطر) فى ٢٠١١ من دار المغرب في بغداد ومجموعة شعرية بعنوان

(ترنيمتان لمنفى واحد) فى عام ٢٠١٢ من دار العارف فى لبنان.
ولها مجموعة قصصية بعنوان عرس الشيطان جاهزة للطبع، وأخرى شعرية بالإنكليزية تحت الطبع فى دار النشر إكس لبريس فى أمريكا.

- تترأس رابطة دجلة للكتاب التى قامت بتأسيسها فى كندا - هاملتون عام ٢٠١٠

- ناشطة مع الجالية العربية وخاصة العراقية فى كندا وتطوعت للعمل فى المدارس الابتدائية لخمس سنوات متتالية - عضوة فى جمعية مساندة ضحايا العنف والتمييز فى كندا. عضوة فى الجمعية الدولية لمترجمى العربية ومقرها مدينة أنتوب فى بلجيكا.

- كُرمت فى مصر كأفضل شاعرة وقاصة عراقية لعام ٢٠١١ فى مهرجان الكلمة نغم فى القاهرة فى تموز من نفس العام.

- شاركت فى العديد من المهرجانات الأدبية والأمسيات الشعرية فى كندا (هاملتون، تور ونتو، مسيساغا وإيتو بيكوك)، فى مصر (القاهرة) وفى العراق (دهوك) وفى أمريكا (تكساس).

التصحيح اللغوى: خالد مصطفى

الإشراف الفنى: حسن كامل